صوت جديد

حكايات مصر المنسية



محمد بربر



حكايات مصر المنسية

سلسلة صوت جديد

الكتاب: حكايات مصر المنسية
المؤلف: محمد برير
النـوع: مقالات
مراجعة لغوية: محمد مبروك
تصميم الغلاف: جيهان متولي
الطبعة الأولى: القاهرة – ٢٠٠٩

الناشر: دار فكرة للنشر والتوزيع
العنوان: كورنيش المعادي – أبراج المهندسين(ب) – برج(٨) – الدور(٢٢) شقة(٢) – القاهرة.
تليفون: ٢٩٧٢٠٩٣٣ (٢٠٢+) محمول: ٠١٤٢١٢١٩١٩

البريد الإلكتروني: darfikra@gmail.com
الموقع على الإنترنت: www.darfikra.com

المدير العام: رأفت أبو عيسى

رقم الإيداع: ١٤٤٥٦ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N.: 978 – 977 – 6312 – 54 - 8



حكايات مصر المنسية

(مقالات)

محمد بربر



إهداء

إلي الجميلة الرقيقة التي أرى في ابتسامتها حنان الحياة

فتلمؤني الدنيا فرحة وأملًا وجمالًا

وأستمد من طيبتها قوة

تعينني على مصاعب الطريق

إلى الرجل العظيم الذي لم يتأخر يومًا في أن

يشجعني.. أبوته وخبرته ونقاء سريرته

إلى أمي الحبيبة

ووالدي الكريم

أهدي هذا الكتاب

محمد بربر

مقدمة

أهرامات الفراعنة الشامخة يجاورها أبو الهول بعظمته وثورته التي لا تهدأ يومًا، نهر النيل وخيرات نعيش عليها، مدن وقرى وبحار وجبال من قاهرة القلوب إلى أسوان الحضارة، برج القاهرة يداعب كورنيش النيل في ليالي المحروسة، شهرة جاء إليها الناس من أرجاء المعمورة وأماني العمر تختار مريديها أو يختارهم القدر.

ثروة طائلة وسيارات فارهة، صناع القرار والساسة وصفوة المجتمع، جرس الجامعة يضرب بلا وجل أو خجل فيما يحتشد السواد الأعظم من المصريين ليتخذوا من مترو الأنفاق وسيلة آمنة ورخيصة بعد أن ضاقت عليهم البلد بما رحبت، صورة ترتسم في ذهن الكثيرين ما إن يتردد على مسامعهم (مصر المحروسة).

ولكن السؤال الذي أطرحه هنا:

هل هذه هي الصورة الحقيقية لبلدنا؟

هل عالم الفن والسياسة والإعلام والمظاهرات والطرب ونوادي الأثرياء ومسابقات ملكات الجمال ونفوذ نواب الشعب هي الوجه الوحيد والواقعي أم أن هناك مصر المنسية؟

هنا وهناك، ضجيج وضوضاء، وحياة لا تعرف سوى الشقاء فيما يتناسى الجميع، الحكايات المصرية المغمورة بهمها وفقرها، هي إذن حكاياتي في بلاط صاحبة الجلالة سطّرها مصريون مثلي ومثلك من أهلنا وشعبنا، ذهبت إليهم.. حاورتهم.. بعد أن اطمأنوا لعدم وجود كاميرات التليفزيون التي يخشونها أو صحافة لا يهمها سوى تملق من باعهم فباعوه وكرهوه، حكايات الشجن تلمس الحقائق التي أحيانًا تؤلمنا. غير أنني أرى الألم بداية المتعة، ألم المريض يجبره على دواء الطبيب حتى يتعافى من آلامه وجروحه، وما أكثر جروح وطننا!

في مصر المنسية أصبحنا نفتقد الضحكة الحلوة.. ورجالًا طالما عرفوا بالشهامة قديمًا واليوم لم تعد تعرفهم.

نتحاكى عن طبق الملوخية وربة البيت تهديه لجارتها، مات كرم الجارة وارتفع سعر الملوخية!

في مصر المنسية انعدمت المشاركة الوجدانية بين جيراننا

وسادت أنانية موحشة دون النظر لمشاعر الآخرين، وانفلتت القيم والأخلاق، صور واضحة ومؤلمة نراها في الشارع المصري والعلاقات الاجتماعية، وبيوت مصرية تسمع منها المشاجرات الحامية والسباب العلني.. فتبكي على حال المصريين.

في مصر المنسية تلاشى كل شيء، ضاع العدل حين بات الخصم حكمًا لا يراعي شريعة السماء، وذهبت المساواة أدراج رياح عاتية لا تهدأ إلا لأصحاب الوساطة والمحسوبية ورافعو شعار (فتح مخك).

فقط يدهشك جرأة الجهلاء وعناد المتطرفين، وحماقة المتعصبين، ومرضى الأهواء الشخصية، وكأن الجميع أعلنها (أنا ومن بعدي الطوفان)، فقر وجهل ثم مرض، ثالوث مرعب يحاصر مستقبلنا ويهدد أحلام أبناء المحروسة، حكاياتنا من بر مصر، تبحث عن لحظة ضمير حي، وحضن أمان وتحن لمصر الجميلة التي غابت، حكاياتنا تتذكر كوميديا إسماعيل ياسين والست فيروز وهي تغني (شايف البحر شو كبير)، ودعوة الشيخ الشعرواي وهو يشرح الفهم الصحيح لدين غاب من بيننا.

حكايات مصرنا المنسية ساخرة صارخة صادمة، لكنها مصرية خالصة، تبحث داخل الناس الطيبة بلا زيف إعلام يشوه الحقائق، أو يتجمل ابتغاء مرضاة السلطان.

أسطرها لعل أحلامنا تصبح يومًا حقيقة.. ولو بعد حين.

المؤلف

في ١/ ٤/ ٢٠٠٩

المواطن مصري

قال الحكماء: (الفقر رأس كل بلاء)، وقال لقمان لابنه: (يا بني أكلتُ الحنظل وذقتُ الصبر فلم أر شيئًا أمر من الفقر؛ فإذا افتقرت فلا تحدث به الناس كي لا ينتقصوك، ولكن أسأل الله تعالى من فضله؛ فمن ذا الذي سأل الله ولم يعطه من فضله أو دعاء فلم يجب؟)

وقال ابن الأحنف في الفقر:

يمشي الفقير وكل شيء ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضًا وليس بمذنبٍ ... ويرى العدواة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروةٍ ... خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يومًا فقيرًا عابرًا ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

في مصر المنسية.. الكل فقير..

عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة في أغوار التاريخ، وحاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن تحل مشكلة الفقر وتخفف من عذاب الفقراء، وفي عصرنا هذا

احتلت مشكلة الفقر مكانًا فسيحًا في عقول الناس وقلوبهم، واتخذها المخربون والهدامون أداة لإثارة الجماهير والتأثير عليهم، وكسبهم إلى جانب مذاهبهم اللا دينية الباطلة.. ولهذا فواجب على كل من عنده علم من الإسلام أن يبين للمسلمين حقيقة ما بعث الله به محمدًا ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ من الهدى والرحمة.

ويرتبط مفهوم الفقر بالتنمية ومدى نجاحها أو إخفاقها في تحقيق أهدافها، ولقد دأبت أدبيات التنمية الاقتصادية على دراسة الفقر وتعريفاته المختلفة وطرق قياسه، كما يعلمنا علم الاقتصاد منذ عدة عقود بوجود مقاييس متعارف عليها لتوزيعات الدخل بين السكان مثل "معامل جيني". كما أن هناك عدة أساليب لقياس الفقر وعدالة توزيع الدخول، ومنذ مطلع التسعينيات ومع انتشار تطبيق وصفات منظمات التمويل الرأسمالية الدولية، خاصة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، حدثت انعكاسات كبيرة على اقتصاديات معظم الدول التي نفذت هذه الروشتة، والتي تزايدت مديونيتها الخارجية، واتسعت الفروق بين دخول مواطنيها، وحدث اختلال كبير في توزيع الدخل، وعجزت الملايين عن تدبير احتياجاتها

الأساسية، وحدث حراك طبقي وانحدار في مستوى معيشة بعض الطبقات، وتفاوت صارخ بين طبقة النصف في المائة التي تحدث عنها الرئيس عبد الناصر وبين جموع المواطنين المحرومين والمهمشين.

تأتي مصر ضمن الدول ذات التنمية البشرية المتوسطة وترتيبها ١٢٠ بين ١٧٧ دولة يشملها دليل التنمية البشرية، ويكفي أن نعرف أنه من بين الدول ذات التنمية البشرية المرتفعة تأتي إسرائيل في المرتبة ٢٢ والبحرين ٤٠ والكويت ٤٤ وقطر ٤٧ والإمارات ٤٩ وكوبا في المرتبة ٥٢ (وهي المحاصرة اقتصاديًا منذ الستينيات)، واتهم تقرير دولي صادر عن الأمم المتحدة الحكومة المصرية بأنها وراء إصابة أكثر من نصف المصريين بالفقر، وتخصيص غالبية موازنة الدولة لصالح الأجهزة الأمنية، وربط التقرير ـ الذي يرصد الوضع الاقتصادي للبلاد النامية ـ بين الفقر الذي أصاب المصريين من جراء سياسة النظام وبين تزايد نسبة الجريمة بكل صورها، وعلى رأسها الجريمة السياسية والانحراف. وكشف عن أن دخل الفرد في مصر سنويًا يبلغ ٦٠٠ دولار ـ (حوالي ٣٥٠٠ جنيه سنويًا) ـ وأن هذا الدخل يعد بالمعايير الدولية أقل من متوسط

دخل الفرد في عشرات الدول المماثلة لظروف مصر، بل ويوقع ما يزيد عن ٧٠٪ من المصريين تحت خط الفقر، وهو ما انعكس بالسلب على تدهور الصحة، وتدني مستويات الخدمات التي يحصل عليها أغلبية المصريين.

وأوضح أن ١٥,٨ مليون مصري لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم من الغذاء، و٢٤,٨٪ يعيشون بدخل يومي لا يتجاوز الدولارين، مشيرًا إلى أن نسبة الفقر قد ارتفعت بنسبة ١٧٪ بعد موجه ارتفاع الأسعار الأخيرة والمرتقبة.

ورسم التقرير خريطة للفقر في مصر، مؤكدًا أن أعلى نسبة توجد في مناطق ريف الوجه القبلي بنسبة ١٩,٣٪، بينما توجد أقل نسبة في المحافظات الحضرية ٠,٥٪ ، واحتلت محافظة أسيوط أعلى نسبة فقر بنسبة تجاوزت ثلاثة أضعاف باقي المحافظات، وتلتها محافظة المنوفية، ثم كل من بني سويف، وسوهاج.

وأشار التقرير إلى التزايد المطرد في العشوائيات، وتحول ظاهرة العشوائيات إلى سرطان انتشر في مختلف محافظات مصر، موضحًا أن القاهرة استحوذت على النصيب الأكبر بحوالي ٦٨٠ منطقة مطلوب تطويرها و٣ آلاف منطقة أخرى مطلوب

إزالتها لأسباب أمنية. وعزا أسباب ظاهرة تفشي العشوائيات إلى انهيار ما يزيد على ٣٠ ألف وحدة سكنية، ويمثل سكان العشوائيات في مصر حوالي ٣٧٪ من سكان المناطق الحضرية.

وأرجع التقرير سبب فقر المصريين إلى التوزيع غير العادل لميزانية الدولة سنويًا، مشيرًا إلى أن الأجهزة الأمنية تستحوذ على النصيب الأكبر من هذه الميزانية في مقابل الفتات لقطاعات الإسكان والصحة والتعليم؛ مما ساهم بشكل كبير في تفشي الفقر بين جموع المصريين. الأدهى من ذلك أننا ويوميًّا نقرأ قصصًا مأساويةً لحالات انتحار أو قتل بسبب الفقر وقلة الحيلة، فأحدهم ينتحر شنقًا للهرب من الغلاء الفاحش، وأخرى تنتحر بسبب مصروف البيت، وثالث فشل في الحصول على عمل فيقرر الانتحار، وعجوز اكتأبت من سرقة أبنائها لبعضهم البعض وسجن أحد أبنائها، وتاجر فاكهة يشنق نفسه بخطاف الموز لمروره بضائقة مالية فتخلص من حياته بالشنق، وتاجر آخر دفعته ديونه للانتحار، وعنوان صادم لرجل فوق الستين ينتحر بإشعال النار في جسده لمروره بضائقة مالية، وحادثة أخرى لشاب يبلغ من العمر ٢٧ عامًا ويدعي شنق نفسه بعدما فشل في مصالحة زوجته التي تركته بسبب الظروف المادية الخانقة، وأب

يبلغ من العمر ٣٨ عامًا انتحر بعدما أخبرته طفلته البالغة من العمر خمس سنوات أنها تريد فستانًا للعيد.!!

في مصر المنسية.. هناك فقر علمي، وفقر صحي، وفقر ثقافي، وفقر أخلاقي، وفقر ديني، فالوضع ليس مقتصرًا على فقر المادة فقط، وهو يعد من أكبر كوارثنا ومشاكلنا، ويحول المواطن إلى قنبلة موقوتة تُدمر كل ما حولها إذا حدث الانفجار، والواقع يؤكد حدوث هذا الانفجار بالفعل، سواء في ظهور العديد من الجرائم التي يلجأ إليها الفرد كالسرقة والاغتصاب للتحايل على واقعه الأليم الذي أفرزه الفقر، بالإضافة إلى لجوء المواطن إلى قتل نفسه بشكل مباشر إذا لم يستطع التحايل على هذا الواقع. الاحتقان والتذمر أصبح متنفسًا لجميع المواطنين لإعلان رفضهم الواقع المرير الذي يعيشون به في الآونة الأخيرة، وهو دليل قطعي على تفاقم نسب الفقر في مجتمعنا وشعور المواطنين بدرجة كبيرة به، فكل المتذمرين مطالبهم مادية بحتة ومباشرة، وهم غير قادرين على تحمل مشقة الحياة، هناك إذن فشل إدارة موارد الدولة، وكان من جرَّاء ذلك تفشي ظاهرة العنوسة المزدوجة بين الشباب والفتيات؛ والسبب في هذا التفشي هو توقف فرص العمل لدى الشباب، وارتفاع تكاليف الزواج.

ليت شعري وموارد الدولة في يد حفنة قليلة من رجال الأعمال، يتحكمون في كل شيء في مصر، ضغوط الحياة الكثيرة جعلت النظرة إلى الحياة مادية بحتة، وأين دور الإيمان الكبير في حياة الإنسان؟ حيث إن الإنسان يُدرك بالإيمان أن القليل فيه بركة، وأن رزقه في السماء لا يأخذه غيره كما قال الله عز وجل ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات ٢٢ -٢٣]

أما عن أكل المصريين خير شعوب الأرض الذين أوصى بهم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- خيرًا فأحيانًا يحضرون بقايا العيش البلدي ويتم إضافة قليل من الماء مع استمرار التقليب حتى يصبح مثل الطحينة تمامًا، ويوضع عليه بعض الملح والبهارات اللازمة، ويتم تغميسه بالعيش، يعني عيش يُغمس بعيش!! وأما أعظم وجباتهم فشراء "الفراخ" النافقة من عند تجار "الفراخ" والذين يبيعون الفرخة" بـ(٤) و(٥) جنيهات بعد أن تعدى ثمن "الفرخة" ٣٠ جنيهًا، ووصل ثمن الكليو من "الفراخ" البيضاء ١٣ جنيهًا لشراء أرجل "الفراخ" وعمل خضار و"شوربة" عليها؛ حتى يجد الأطفال "منابًا" يمسكونه في أيديهم حتى ولو رجل "فرخة"!!

يذهبون لبائع "الزلابية" و"لقمة القاضي" و"بلح الشام"، ومعهم رغيف العيش ويقطعونه نصفين ويطلبون منه أن يضع لهم القليل من "الشربات المسكر" الذي يتم التحلية به داخل الرغيف.!!

ويحكي أحد الزملاء أنه وأثناء قيامه بتغطية حادث الدويقة الشهير أخبره أحد الفقراء من سكان المنطقة واصفًا طعام أسرته: نذهب إلى أي جزار ونأخذ منه العظم الذي يلقيه أسفل قدمه وتلعقه القطط، والذي لا يوجد به أي مواسير أو غيره؛ فنحن ليس في مقدرتنا شراء عظم المواسير الفاخر، ونقوم بغسله ونضعه على النار مع كميةٍ كبيرةٍ من الماء، ونعمل شوربة حتى نرم عظم أولادنا ونشرب شوربة، وأحيانًا أخرى نذهب إلى سوق الخضار ونشتري الخضار التالف العاطب والذي يضعه البائع عادةً أسفل قدمه.. نأخذه ونحاول "تظبيطه" بغليه، ونضعه بعد تقطيعه على النار، ويتم عمل خلطة خضار نأكلها في الوجبات الثلاث.

حتى في السينما المصرية كانت فكرة الإحساس بالدونية هي الفكرة المسيطرة على الأفلام السينمائية، التي تتناول قضية

الفقر، أغفلت مناقشة مشكلات عديدة للفقراء، مثل مشكلة العشوائيات التي تتغلغل في المجتمع المصري وتنتشر في جميع أنحاء الجمهورية، وكذلك مشكلة أطفال الشوارع التي لم تتناولها إلا بشكل سطحي في فيلم واحد فقط، والمثير للدهشة عرض الصور التي تظهر الانحرافات الأخلاقية بين الطبقات الفقيرة؛ لتعطي الانطباع لدى المشاهد بأن هذه الانحرافات هي القيم السائدة بين الطبقات الفقيرة.

"لله يا محسنين".. جملة ضمن قاموس معروف، تتردد مفرداته على مسامعنا كثيرًا في الطرقات، والميادين. كما تتردد بصفة خاصة أمام "المساجد"، وتزداد في "المناسبات الدينية": يوم الجمعة، في عيدي الفطر والأضحى، وطوال شهر رمضان.. إلخ، إنه "قاموس الشحاذين".. وفي محاولة منهم لامتلاك أدوات التأثير المطلوبة، لربط حالهم بمقتضيات الشهر الكريم من التعاطف والتراحم، يحفظ الشحاذون بعض آيات القرآن، والأحاديث المحرضة على التصدق والإنفاق في سبيل الله، فضلًا عن الأدعية التي يكررونها لاستجلاب عطف الناس، وربما ارتدت الشحاذة ملابس ظاهرها التدين والحشمة كالحجاب أو النقاب، وقد يطلق أحدهم لحيته.

فيؤثر الشحاذون بأدائهم الدرامي في المسلمين، ويأخذون أموال الصدقات والزكاة بالباطل، حيث يدعي عدد غير قليل منهم الفقر والحاجة، وهنا يأتي دور المسلم في اختيار من يعطيهم الصدقات وأموال الزكاة، لكي يحسن استثمارها في دعم فقراء المسلمين المتعففين.

لم يعد التسول في مصر لسد الرمق، وإنما أصبح ظاهرة واحترافًا؛ لما يدره من دخل عظيم في واقع تفشى فيه الفقر والبطالة والأمية. ومع اقتراب المناسبات الدينية لا يكاد زقاق أو باب مسجد يخلو من أيادي تمتد تطالب الناس بالصدقة، مستخدمة عدة أساليب وعبارات للاستعطاف.

قد يصل متوسط دخل المتسول في اليوم ما بين ٥٠ جنيهًا و ١٠٠ جنيه، وتعتبر المساجد المكان الإستراتيجي لممارسة التسول؛ لأن قلب المصلي يكون لحظتها قد رق وخشع؛ وبالتالي فإنه يكون أقرب للتصدق، وفعل الخير بكل سخاء.

ويستخدم الشحاذ في ذلك عبارات تخاطب العاطفة بقوة واحترافية بالغة في كثير من الحالات، إلى جانب نوعية اللباس، وأحيانًا بعضهم يرفق معه أطفالًا صغارًا ورضعًا للاستعطاف.

بعض هؤلاء المتسولين غير راضين عن أوضاعهم، فقد دفعتهم ظروف قاهرة لمد اليد؛ مما ولد لديهم الشعور بالإهانة والدونية والاستياء، أحيانًا تترجم إلى سلوكيات عدوانية وانتقامية. ولذلك فإن شعور الناس تجاه المتسولين يختلف من شخص لآخر، ما بين الشفقة أو التقزز والاشمئزاز أو الضغينة والحقد.

ويتمثل استغلال وتوظيف الدين في سيل من الدعوات الدينية المصحوبة بالمواقف الدرامية، مثل: "الله يبارك فيك، الله يسترك، الله يحفظ شبابك".. وقد يحفظ المتسول آية أو حديثًا نبويًّا يلقيه على مسامع السيارة، على شاكلة: "الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه".

عكست السينما الصورة من جميع الزوايا والاتجاهات متناولة الممتهنين بالتسول، وكان فيلم "المتسول" للفنان عادل إمام أبهى وأروع تجسيد لهذه الظاهرة، حيث جسد فيه دور من تستغله شبكة الـ"شحاتين" ويتم "تجنيده" للعمل لحسابهم، وعندما يعجب بفتاة ويتقدم لطلب يدها لا يتمكن من مصارحتها بحقيقة عمله، وأظهر فيلم آخر وهو بعنوان

"العفاريت" الذي أوضح مايتعرض له أبناء الشوارع من قسوة وعنف وتعذيب وكيفية استغلالهم بكل السبل المتاحة؛ فعكست كيف يتسول الأطفال، وكيف يحاولون التأثير على ضحاياهم، وكيف تمكنت الصغيرة من التأثير على الشاب الذي رق قلبه لسوء الطريقة التي تتحدث بها، والصعوبة التي يواجهها أي شخص يحاول تغيير هؤلاء الأطفال؛ حيث يولدون وبداخلهم قسوة وعنف وكراهية المجتمع والرغبة في التسول والحرمان.

فالأطفال يتسولون ويحملون الأموال للكبار دون الانتفاع بأي جزء منها إلا بأقل قدر. ومن أبرز ما جسدته الدراما التليفزيونية مسلسل "أحلام عادية"، والذي أوضح كيف يحاول المتسولون استعطاف الأشخاص والبكاء والتهويل على أشياء مكسورة، وأوضح أيضًا أن التسول (بيزنس)، ومن الممكن أن يتزوج المتسول وينجب أطفالًا ليعملوا معه في نفس المجال، أو يستأجر طفلًا ليعاونه في ذلك، وكيف يستغل أبناءه في التعليم ليمكنهم من السرقة في أماكن وأحياء راقية، ووسائل الضغط المتبعة والحفاظ على المناطق الخاصة، واحترام الكبير والسابقين في المهنة.

وأخيرًا.. قرر البسطاء في مصر المنسية أن يفعلوها.. بيع أعضائهم لمن يدفع أكثر.. والرزق يحب الخفية.. لم أتخيل يومًا أن أرى ما تشيب له الغلمان.. أعضاء تباع، وفقر يقتل، ومصر في مهب الريح.. شجعتني هذه الدراما على أن أفضح المستور..

التقيت بالسيدة رغدة إحدى السيدات اللاتي تبرَّعن بكليتهن مقابل مبلغٍ قدره ١١ ألف جنيه، وكان الدافع الرئيسي لها على ذلك كما تقول هو ضيق العيش وكثرة ديونها، إلا أن هذا التصرف أدى إلى نشوب خلافات بينها وبين زوجها وصلت إلى درجة الانفصال (الطلاق)..

تحكي عما يحدث من إجراءات "شروط الصفقة" قائلةً: يتم تصوير اعتراف المتبرع بالصوت والصورة، بأنه متبرع وليس بائعًا، ثم إلزامه بكتابة إقرار بخطٍّ يده يعترف فيه أيضًا بذلك، مع اشتراط وجود ضامن للمتبرع (ولي أمر) يكون ذا صلة قرابة (أم- أخ- ابن- زوج)، ومستند يثبت القرابة، مشيرة إلى أن المكتب الخاص بالسمسار هو الذي يقوم بالتنسيق بين المتبرع والمشتري.

كافة الإجراءات الخاصة بالمتبرع تكون على حساب

المريض بما فيها التحاليل والإقامة أيضًا، الإجراءات التي تتمّ هي التأكد من فصيلة الدم، وتحليل بول ودم، وعمل أشعة بالصبغة؛ لمعرفة ما إذا كان يمكن للمتبرع أن يتبرَّع بالكلية ويعيش حياةً مستقرةً أم لا، وعند إجراء عملية تبرع بالكبد يتم إجراء أشعة مقطعية على جميع أجزاء الجسم أيضًا، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الأنسجة والأوعية، وهي من أهم المراحل، فإذا كانت الأنسجة والأوعية بالنسبة للمتبرع متطابقةً للمريض بنسبة تزيد عن ٥٠٪ ولا تقل عن ذلك يتم التبرع، وإذا لم يتم التوافق يتم البحث عن مريض آخر يتوافق مع الشروط السابقة، وتتم عملية الفصل للكلية قبل العملية بأسبوع، إجمالي تكلفة العملية يبلغ من ٨٥ ألفًا إلى مائة ألف جنيه شاملةً عملية الخلع والزرع، ويقوم بدفع المبلغ المريض أو المشتري للعضو.

وتعتبر "الكلى" هي أكثر الأعضاء البشرية بيعًا في مصر، ويصل سعرها إلى أكثر من ١٠٠ ألف جنيه، يتم توزيعها بين البائع والجرَّاح وعدد من الوسطاء، ويشترط على المتبرع أن يكون سنُّه من ٢١ إلى ٤٠ سنة، وبعد إجراء العملية يجب على المتبرع التحرك والمشي بعد العملية بثلاث ساعات، وتتم عملية الإخراج بعد ثلاثة أيام.

اللافت للنظر أن شبكة الإنترنت تحوَّلت مؤخرًا، خاصةً خلال العامَين الأخيرَين، إلى سوق سوداء إلكترونية لعصابات المافيا، من جانب تجارة الأعضاء البشرية، ويتمثل ذلك في أن بعض الشركات تقيم مزاداتٍ على الإنترنت للأعضاء السليمة يطرح فيها كل شيء للبيع، بدءًا من القلب ومرورًا بالكبد والدم والنخاع وانتهاءً بالجلد.

هي إذن مصر التي لا تكذب، فقط يتجمل أثرياؤها بما يفتقده عوام الشعب الطيب.. المواطن المصري أوشك صبره على النفاد، وضعفت قوَّته على الصمود أمام صدمات المعيشة القاسية.. ومهما وصل فقر المصريين.. فالذين صنعوا المأساة هم الأكثر فقرًا في الثقافة والحضارة والعلم والخبرة والمعرفة بإمكانات وقدرات هذا الشعب.

***

مجتمع (وأنا مالي)

في يوم ما وهنا في مصر.. كنا نتغنى بصفة الشهامة، تلك الصفة التي تمنح صاحبها تكريمًا وتعظيمًا وتضفي عليه ملامح الرجولة؛ إذ أن الشهم رجل متعاون ومشارك في قضايا وأفكار أسرته، مجتمعه، ووطنه، أو بعبارة المصريين الشهيرة (راجل جدع) تراه حين تستنجده سيدة سرق اللص الأحمق حقيبتها يهرول بحثًا عن السارق، وحينما يصل إليه فإنه يلقنه من صنوف الضرب ما يجعل السيدة تشكره كثيرًا، بل وتتمنى لو أنه لم يعثر على هذا السارق من شدة الضرب، أو فتاة حاول أحد ذئاب الطريق أن يتحرش بها فتصرخ طلبًا للنجدة.. وحينما يسمعها المارة يتجمعون بسرعة البرق ليتحول الشارع إلى مظاهرة تحتج على تصرف الشاب الطائش وتعاقبه على فعلته الشنيعة.. مشاهد كنا نراها عادة في الشارع المصري، لكن ثمة خطر بات من الضروري أن نراه أيضًا، هذا الخطر يتمثل في فوضى خلّاقة تجسد أحوالنا اليوم بعد أن تبدلت وتغيرت وأصبحنا (نصعب على الكافر).. ربما هي طاحونة الحياة التي غيرت سلوكياتنا

ومواقفنا، فمئات الفتيات والسيدات يتم التحرش بهن يوميًا دون أن يهتز لنا شارب.

في مصر المنسية لم تعد تهتز الشوارب إلا لراقصات المجون ومقاهي الصنف العالي ونساء الليالي الحمراء. التحرش الجنسي في مصر يتحول إلى "سرطان اجتماعي": نظرات شبقة، تعليقات جنسية، ولمسات. صار التحرش بالنساء معتادًا في شوارع مصر إلى حد أن المراقبين باتوا يعتبرونه آفة اجتماعية يمكن أن تعرقل عملية التنمية.

وطبقًا لتقرير المركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية، وهو مؤسسة تابعة للدولة، فإن الجرائم ذات الطابع الجنسي في تزايد مستمر، ولا توجد إحصاءات رسمية حول التحرش، ولكن جريمتي اغتصاب تقعان كل ساعة، بحسب دراسة لهذا المركز، تشير إلى أن ٩٠٪ من مرتكبي هذه الجرائم من العاطلين عن العمل.

وتقف عوامل عدة خلف اتساع ظاهرة التحرش الجنسي، فإلى جانب البطالة هناك تأخر سن الزواج وصعوبته بسبب ارتفاع تكاليفه في مجتمع غالبيته تدين بالإسلام.

نكتفي بمجرد الاستمتاع بمشاهد التحرش وكأننا في دور عرض سينمائي.. في بلادنا ضاعت الجملة التاريخية (امسك حرامي) لنستبدلها في هذا الزمان بالجملة السلبية حتى النخاع (وأنا مالي)..

إلى هذا الحد افتقدنا النخوة والرجولة، ورفعنا شعارات جبانة بعد أن انعدمت بيننا الشفقة الاجتماعية. أرأيت تعامل الشباب غير الإنساني تجاه المسنين والمعاقين في الشوارع وأثناء ركوب السيارات العامة؟!

الأمر جد خطير، غاب الحب، وانعدمت الألفة بين الناس، ووصل بنا الحال إلى وجود خلافات علنية بين نساء أحياء معينة مدعمة بألفاظ نابية ووضيعة.

في مصر المنسية أصبح السباب العلني صورة من المعاملات اليومية بين المستويات الاجتماعية البسيطة والراقية، ولكل مستوى ألفاظه التي يعف القلم عن كتابتها، ربما في الأحياء الفقيرة تسمع الطفل الذي لم يبلغ الخامسة من عمره وهو يصف أم صديقه بالزانية.. والأمر عادي جدًا هناك في الأحياء الراقية.. نفس الطفل يصف نفس الأم ببنت العاهرة

(وهي أشهر شتيمة في المجتمع الأمريكي)، وقد استبدل في جملته ما يتناسب وثقافة مجتمعه الراقي..أين بيت الأمان الذي تربينا على حبه؟

واحصائيات التحرش تنذر بكارثة أخلاقية غير مسبوقة!

ضاعت نخوة المصريين، وانفلتت أخلاقهم، ويكفيك أن ترى معاكسات الشباب لسيدات يمشين بمفردهن، وإذا ما حاولن الدفاع عن أنفسهن يواجهن بالسخرية والألفاظ البذيئة، ونحن لا نأمن على سيداتنا وفتياتنا وهناك ذئاب يسيل لعابهم انتظارًا للفريسة، وما يدعو للحسرة أن هؤلاء الذئاب هم في الحقيقة أولادنا، وإخواننا وجيراننا الذين فشلت أسرهم في تقويمهم وتربيتهم منذ الصغر، ونتجرع نحن مرارة تصرفاتهم الحمقاء.

هي إذن مصرنا المنسية تدق ناقوس الخطر؛ خوفًا من بركان يدمر مجتمعنا الذي يعاني من أزمة في نخوة أبنائه، ويخشى على فتياته منهم، لعل في دقاتها النفع والحذر.

***

جزيرة منسية
على أرض مصرية

لم أتخيل يومًا أن أرى مثل هؤلاء.. الحكاية حقيقية، ولم تمثلها شيريهان في فوازير رمضان.. لكنها في النهاية.. مصر المنسية.. كنت حينها أدرس الصحافة بكلية الآداب.. في الفرقة الأولى عملت مراسلاً لعدة صحف في مدينتي الكريمة (دمياط). العمل في الصحافة لا يمثل لي نفوذًا أمارس من خلاله ادعاءات كاذبة أو لقبًا يمنحني مكانة ما.. بل كانت أحلامي أن تقرأ لي مصر كلها.. من شمالها حتى جنوبها.. القراءة متعة، والكتابة أكثر إمتاعًا.

كان الأمر مثيرًا للغاية بالنسبة لشاب لم يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره.. الصحافة رسالة.. هكذا أحاول إقناع نفسي، حتى وإن رأيت من بعض زملائي ممارسات تدعو للحسرة على صاحبة الجلالة، قررت إذن أن أصور آهات الناس بلا تهوين أو تهويل.. الآهات إنسانية.. وهناك رأيت مصر المنسية..

تقع جزيرة العزبي في بحيرة المنزلة بين محافظتي دمياط والدقهلية على بعد ٤٠ كيلو مترًا من قرية غيط النصارى جنوب محافظة دمياط.. سكان الجزيرة استوطنوا فيها منذ أكثر من قرن عندما جاء جدهم الأكبر العزبي وأطلق عليها اسمه، وبنى له أحفاده مقامًا متواضعًا في مدخل الجزيرة.. وبمرور الزمن زاد عدد السكان حتى وصل إلى ثلاثة آلاف نسمة.. يحلمون بالحد الأدنى من الخدمات الإنسانية.. أعلم أن الكلمات لن تسعفني، وكيف لي أن أترجم صورة طفل صغير يشرب من مياه البحيرة وهي نفس مياه الصرف الملوثة؟.. ماذا عساي أن أفعل إذن تجاههم؟

"جريدة البديل"، حيث أعمل حينها، ستنشر القصة ويقرؤها الجميع.. ربما سيقرأها أحد مسئولي الدولة فيتحرك لإنقاذهم.. وعشت على هذا الأمل.. قطعنا المسافة داخل مياه الجزيرة باللنش الطائر.. سرعته تشعرك بأنك تبحر في مياه الأطلنطي، غير أن تلوث المياه ينبهك مرة أخرى أنك لا تزال في مصر المنسية، رجال الجزيرة يعتمدون على الصيد ولا يجيدون سواه، ونتيجة مياه البحيرة الملوثة عرفت منهم أن جميع الرجال والأطفال مصابون بالفشل الكلوي.

في جزيرة العزبي تصب المنازل صرفها غير الصحي بالمرة على شواطئها؛ ومن ثم يتعرض الأطفال والرجال -بحكم حركتهم أكثر من النساء- للإصابة بالبلهارسيا..

تعداد سكانها أكثر من ثلاثة آلاف نسمة، حسب ما رواه لي الشيخ "مفرح" كبير الجزيرة.

جزيرة منسية، وكأنها ليست أرضًا مصرية.. لا يوجد بها مستشفى واحد يعالجهم رغم وجود أراض كافية للبناء عليها، ومن يمرض أو يشعر بالتعب عليه الذهاب إلى أي مدينة مجاورة.. (تخيلوا لو واحد مات منا لازم نشتاله على اللنش مسافة ٤٠ كيلو مترًا حتى نصل إلى مقابرنا في مدينة دمياط)، بهذه العبارة الدرامية ينتمي عم صبري إلى أهل بلادنا.

قال لي في لحظة يأس لا تراها كثيرًا على وجوه الصابرين من أمثاله: (كل أهل الجزيرة بيتشغلوا في الصيد، ونفسنا نعلم أولادنا.. مش عايزينهم يشوفوا اللي شفناه.. الجهل وحش بس منين نجيب لهم مدرسة؟!)، لا تجد صعوبة في أن تستمتع بطيبة سكان الجزيرة وتمسكهم بعادات وقيم مصرية أصيلة لم تلوثها الحضارة، جاءهم أشخاص من محافظات مجاورة ليعلموا

أولادهم نظير مقابل من المال، وكلما كبر الطفل منهم زاد هذا المقابل حتى يصل إلى خمسة جنيهات في الأسبوع الواحد، ولكنهم رحلوا ذات صباح ولم يعودوا.. ربما لأن معيشة الجزيرة قاسية... هنا فقط.. تطرب مسامعي جملة طه حسين الخالدة (التعليم كالماء والهواء)، وتصريحات الوزراء عن التعليم المجاني.. والخبز المجاني والحياة المجانية، الشيخ مفرح جاء إلى الجزيرة منذ سبعة أشهر ليحفظ أطفالها القرآن الكريم ويعلمهم القراءة والكتابة، صافحني مبتسمًا وهو يقول:

- هنا ممكن الواحد يموت بسبب إصابته بحمى، والأمراض هي سيدة الجزيرة.

في صوت هذا الشيخ سمعت الألم، خاصةً بعد سؤاله:

- لماذا يحرم الأطفال الصغار من حقوقهم ولماذا يعامَلون بهذه الطريقة؟.. أين المساواة التي ملأوا أفواههم بها؟!! فين العدل يا ناس؟.

استوقفتني الجملة الأخيرة.. ظننت أن الشيخ مثلي يبحث عن العدل، ولكنه أقسم لي أن العدل مات!

الجزيرة المنسية لا تعرف الكهرباء، ومعظم العائلات تمتلك مولّدًا يعمل من المغرب وحتى العاشرة مساء، ثم يخلد الجميع للنوم؛ حتى إن زميلي المصور سخر من قدرهم وسألهم:

- أنتم إذن لا تشاهدون ليالي التليفزيون والمفتش كرومبو؟!

لم يستجب عم سلامة لسخرية زميلي، وأمسك بذراعي والدموع تسيل من عينيه:

- والله يا أستاذ مفيش مية، وبناخد مية الشرب من حنفية في غيط النصارى، وده بيكلف كل عيلة ٣٠ جنيه أسبوعيًا قيمة نقل مية الشرب في المركب المخصص لنقلها.

لم أتمالك مشاعري وأنا أرى دموع عم سلامة.. طيبة هذا الرجل لم تمنعه من فضفضة سياسية:

- وحياة ربنا أنا بحب الريس، لكن اللي حواليه والمسئولين اللي هنا مش حاسين بينا.

وكأن المواطن في مصر المنسية يستجدي مسئولي الدولة طلبًا لعطف أو شفقة.. هكذا كان حديث عم سلامة..

سيدة تستند على بيت متهالك لا ترى فيه من مظاهر الحياة سوى بقرة ودجاج يأكل خبزًا مكسورًا.

اقتربت منها، وقبل أتفوه أخبرتني أن الأمراض تحاصرها ولا تجد لها علاجًا خاصة بعد وفاة زوجها وعائلها الوحيد، ثم سألتني في دهشة:

- إحنا بناكل من البحيرة، وصرفنا في البحيرة، يبقى إزاي مش هنتعب ونموت من التعب؟

لم أجد جوابًا فضحكت لها، وطلبت منها أن تغني لنا لعلّي أهون عليها، كان طلبي حقًا غريبًا؛ إذ إن السيدة امتعضت في وجهي وقالت:

- أغني إيه بس يا ابني.. إنت في عقلك حاجة؟

صدقت السيدة البسيطة.. أنا في عقلي حاجة!

في جزيرة العزبي يبدأ سن الزواج بالنسبة للفتيات من سن الثانية عشرة، ومن تتعدى الثامنة عشرة دون زواج فهي عانس عند أهل الجزيرة. أما بالنسبة للشباب فيتزوج الفتى وهو في السادسة عشرة ولا يتأخر عن الثامنة عشرة؛ ربما لأن أرض

الجزيرة خالية، يبني لنفسه سكنًا مستقلاً عن بيت والده، أو يتخذ غرفة في منزل العائلة. ولأن الحياة الزوجية تعاون فإن العريس يشتري حجرة أو اثنتين حسب مقدرته، فيما تحضر العروسة الملابس والصيني وفرش المنزل.

الحياة عند سكان الجزيرة كلها عمل.. الفقر لا يمنحهم راحة.. حتى في الأعياد يتزاورون قليلاً، ثم يذهب كل منهم إلى عمله..

هناك في مصر المنسية ليس أمام السيدات عند الولادة سوى السفر إلى المنصورة أو دمياط.. وطبعًا إذا كان وضع السيدة في ليل حالك الظلمة.. فإن قدرها لن يمهلها لتفرح بولدها.. (قولوا عليها يا رحمن يا رحيم). لا تعرف سيدات مصر المنسية عن المجلس القومي للمرأة شيئًا، ولن يعرفن.. حياتهن شاقة، بعيدة كل البعد عن غسالة أو ثلاجة، وكل شيء يغسلنه في البحيرة المالحة؛ مما أدى إلى احتراق جلودهن.. مصيف الأولاد متعة؛ يستحمون في البحيرة طوال اليوم وقد كساهم اللون الأسود.

تجرأت فطلبت أن أرى بطاقة شخصية لأحد سكان

الجزيرة المنسية، فعرفت أن حكوماتنا المتعاقبة والرشيدة لا تعترف بهم إلى الآن! كيف إذن أسمح لنفسي بهذا السؤال العجيب؟!

أكثر ما أعجبني في أهل الجزيرة تمسكهم بعادات أجدادهم، عن مقام الجد الأكبر العزبي وكراماته حدثوني أنه عندما توفي أخذه الأهل ليدفنوه، ولكن الجثمان طار منهم على المركب القديم الذي كان يقله وأتى به إلى أرض الجزيرة مرة ثانية؛ ولهذا بنوا له مقامًا ويقيمون له مولدًا كل عام منتصف شهر أغسطس، يجمعون فيه الأموال، ويحضِرون أهل الذكر، ويحكون قصص الصحابة وسيرة أبو زيد الهلالي، ومنهم من يقدم النذر عن الشفاء أو تحقيق أمنية..

رحلت من الجزيرة بعد يوم لا ينسى، وحكاية مصر المنسية حتى في الموت..

***

مصر اللي فوق ومصر اللي تحت

منذ أنين يومه الأول، وبكاء هذا الرضيع بحثًا عن حضن أمه، مرورًا بتعليم لا يرقى أن يكون في بلد تعبد الأصنام من دون الله، إلى رعاية صحية وعناية أمهر أطباء مصر، ذلك إذا لم يكن أحدهم طبيبًا مزيفًا يستخدمك كفأر تجارب، حتى تصل إلى محاولات مستميتة تبحث فيها عن شقة تليق بك أيها الفأر العظيم.. تخيرك عروسك بين نعيم العيش الرغد معها أو شقة بالإيجار، ثم وأخيرًا.. الموت.

رحلة يومية تمتد لسنين طويلة يعيشها المواطن في مصر المنسية، لا تمهله لحظة حتى حين الرحيل، وكأن سلاطين هذا الزمان قد أقسموا -ورأسهم وألف سيف- أن تُعمق الهوة بين الفقراء والأغنياء حتى في الموت. في المقارنة بين موت أغنياء مصر المحروسة ورحيل البسطاء تجد ما يضحكك وما يبكيك. تخيل أيها المواطن العزيز أن سعر المقبرة الواحدة في المناطق الراقية مثل الكريمة مصر الجديدة والتراب المقدس في أحياء الزمالك تبدأ من أربعين ألف جنيه، وتصل إلى أكثر من مائتي ألف جنيه..؟!

ناهيك عما يفعله الأثرياء حين يجعلون من مقابرهم فنادق عالمية تستهوي الأنفس، وتأخذ العقول والقلوب.. سيراميك فاخر، وسجاجيد مزخرفة، وأشجار العنب والزيتون، ناهيك عن التكييف والاستراحة التي نراها في مدافن الناس الأبهة، بوابات تصمم على أحدث طراز من الرخام والزجاج، وتبدأ البوابة الواحدة من سعر سبعين ألف جنيه، وتصل إلى ملايين الجنيهات!

وفي مصر المنسية هناك مدافن الفقراء.. الأرض رطبة تابعة لكل محافظة.. مدافن اللحد تخصهم، وهي مقابر بنفس حجم الجثة، توضع مباشرة على التراب، عزاء الفقير أن الجميع يتساوى في التراب.

الكفن عند الموت أنواع.. كفن الكفن، ويعني أن يكفن الميت في قميصه كالرسول صلى الله عليه وسلم؛ وذلك في حالة الاستشهاد، وكفن شرعي يدرج الميت فيه في ثلاثة أدراج للمرأة والرجل، والكفن (الفخري)، وهو كفن شرعي يضاف اليه حرير وملمس للمرأة وقطيفة وسكر وكات للرجل.. الكفن أيضًا في بلادنا أسعار؛ فكفن الأثرياء الفخري يبدأ من من ألف جنيه ويصل إلى ثلاثين ألفًا، بينما يقبل الفقراء على الجمعيات

الشرعية؛ لأن بها أقل سعر للكفن، لا يزيد الواحد عن مائة جنيه، بالإضافة إلى الأكفان المجانية التي تأتي من التبرعات.

عطر مصر المنسية هو الماورد، وزجاجته تباع بجنيهين فقط، فيما يصل سعر الجرام من المسك السويسري إلى خمسة آلاف جنيه!

هي إذن ظاهرة الشراء وثقافة المظهرية التي حلت على المجتمع المصري، تخيل أن سعر الصندوق يبدأ من ألف جنيه ويصل إلى أكثر من عشرة آلاف جنيه؟! ويختلف السعر بالطبع حسب نوعية الخشب المصنوع منه الصندوق، وحسب الصليب (بالنسبة للمسيحيين) إذا ما كان نحاسًا أو مصقولاً بماء الذهب أو من الذهب الخالص.

حتى في الموت تعلن الطبقات عن نفسها من خلال تصرفات تؤصل التفرقة والحقد الطبقي. وصدقني يا عزيزي المصري حين أخبرك (سرًّا) أن سكان مصر "اللي فوق" تتكلف فراشتهم أكثر من مليون جنيه.. وقارىء القرآن عندهم له تسعيرة خاصة قد تصل أحيانًا إلى خمسة عشر ألف جنيه، مثل قرآن الشيخ الطبلاوي ومعوذتي الدكتور نعينع.

فراشة الأثرياء يصل الكرسي الواحد فيها إلى عشرة آلاف

جنيه، وهي كراسي مذهبة ذات قماش يدوي الصنع. أما مصر "اللي تحت" بأهلها البسطاء.. فيكفي إقامة سرادق تحت المنزل وسماع صوت القران الكريم عبر المسجل.

أرقام مفزعة، وفوارق في مصر المنسية تنذر بكارثة، ونظرة واحدة إلى زيادة معدل الجريمة بين الفقراء تجاه الأغنياء كفيلة بأن نطلب الستر حين الموت.

أليس الإسراف في مظاهر العزاء يعد تبذيرًا يرفضه الدين وروح الإسلام السمحة كما علمونا شيوخنا الأجلاء بعيدة عن المغالاة والبدع؟ وربما كان دعاء من القلب وصدقة جارية أفضل من صفقات العزاء المظهرية!

ابتسم لي أبونا هشام وهو يجيب على سؤالي ثم قال:

- يا عزيزي هذه الصور ضد روح الإنجيل وتعاليم المسيح.

شكرت رجال الدين المسيحي وشيوخ الإسلام الأجلاء..

وها أنا ذا أوصيكم بدفني مع الفقراء..

حتى في الموت.. رأيت مصر المنسية!.

آكلو لحوم الحمير

أعترف أنها المرة الأولى في حياتي التي أبكي فيها أثناء عملي الصحفي، ففي الوقت الذي يأكل فيه الأثرياء لحوم الجمال، تشتهي بطون الفقراء لحوم الحمير. أسمع صوت المواطن البسيط صادقًا صادمًا وهو يحلم بستر الله ويرضى بقليل الحياة ويتمنى أن يجنبه الله شر الاستدانة، ففي الدين المذلة. وجبات الكباب الدسمة وأطباق السي فود الغنية وكافيار الكبار أشياء لا تهم كثيرًا المواطن المصري؛ فهو يستمتع بطبق الفول أبو زيت حار ورغيفين من العيش الطباقي، وفي بطيخ الصيف خير فاكهة أحيانًا أخرى، يشتهي مواطن مصر المنسية اللحمة.. حتى لو كانت لحمة الحمير!

مصر المنسية لا يشغلها أيديولوجيات الحزب الحاكم وفكره الجديد، ولا تعبأ باحتجاجات المعارضة ورفضها التوريث، فقط تبحث المحروسة عن لقمة العيش.. وفي الحمير السر!

لم يسجل أرشيف الحوادث جريمة بهذه البشاعة تدعو إلى الهم والحسرة بعد انعدام الضمير والاستهانة بالناس، وبعد أن امتنع الفقراء عن الأرز والمكرونة لارتفاع أسعارهما وابتعدوا عن فواكه وخضروات الهرمونات، حتى هياكل الدجاج اضطروا أيضًا لتركها خوفًا من أنفلونزا الطيور، خاصةً وأن مصر سجلت أعلى معدلات للإصابة بهذا المرض القاتل في بداية عام ٢٠٠٩.

جاء اليوم الذي يظهر فيه جزار الحمير والكلابجي، ربما بقي لهم أن يأكلوا العيش الحاف، حتى هذا النادر أصبح بمعركة دامية في طابور الصباح.

في إحدى أسواق المنسية سمعت حديث لحوم الحمير النافقة، يقولون إن اللحم الذي نأكله غير صالح للاستخدام الآدمي..

عبارة المسكينة جعلتني أضحك بسذاجةِ مَن لا يفهم شيئًا!!.. ضحكت حتى البكاء، وحديث سيدة في العقد الخامس تدعى الحاجة فايزة قد ترك بداخلي ألم لا يوصف:

- الحياة غم وهم.. مش كفاية علينا غلاء الأسعار؟..

ناقصين كمان لحم الحمير الميتة؟.. يعني حمير وميتة.. لولا الحُرمانية كان الواحد شنق نفسه وخلص من الحياة الصعبة دي.. الناس مات الضمير جواها.. اللي صعبان عليَّا الواد ابني.. كان بيحب يشتري الحواوشي وياكله وهو فرحان.. كل ما افتكر إنه يا حبة عيني أكل لحم حمير ميتة بطني توجعني ويصعب عليَّا ويتقطع قلبي عليه.

عرفت منها أن الجزار رفض أن يعطيها كيلو من (زبالة اللحمة)، في مصر المنسية تعرف العروق والشغت بهذا الاسم، ويصل سعر الكيلو من هذه الزبالة خمسة جنيهات، أشاح لها الجزار بيديه وأمرها أن ترحل فلن يعطيها ما تشتهي، يأخذ أصحاب المطاعم هذه البقايا ويضيفون لحوم الثلاجة الكبيرة (العفنة)، وبعضًا من التوابل والبصل وقِطع الجزر، ويقدمونها كفتة، بعد أن ضاع طعم ورائحة اللحم العفن!

أهل مصر المنسية كلامهم ساكت وسكوتهم يقين بأن حياتهم لن تختلف كثيرًا عن رحيلهم.. وفي الرحيل كرامتهم.. وكيف الكرامة في دنيا الحمير؟!

- لولا شفنا الموضوع في التليفزيون وجابوا صور جزارين الحمير ما كناش صدقنا.. إحنا عايزين نعرف بس ليه بيعملوا فينا كده؟ وفين حكومة البلد؟.. أنا من ساعتها مش قادرة أصدق، وولادي بياكلوا عيش حاف، أو معاه حتة جبنة قديمة أو عسل أسود وخيار.

يعتاد البسطاء في بلادنا الصدق، حتى في أحلك الظروف، غير أن صور من قدم لهم الحمير لحمًا كانت معبرة ومؤلمة!!.

أقسمت عليَّ السيدة البسيطة أن أنشر في الجريدة دعاءها، صرخت بأعلى صوتها:

- منهم لله الحرامية الكبار، وربنا ينتقم منهم.

وعدتها بذلك وأنا أردد (آمين) بينما الدموع تنساب على الورقة التي أدون فيها أحوال مصر المنسية!.

***

٠

معارك المواطنة الدامية

يبدو واضحًا الآن وقبل أي وقت مضى أن بيننا من له مصلحة في إيقاد نار الفتنة ودفع الاحتقان إلى مرحلة الانفجار، ظواهر غريبة على مجتمعنا المتسامح، وحالة احتقان بين نسيج الوطن المكلوم تنذر بالمكروه..

حكى لنا أستاذنا ونحن في سنة أولى ابتدائي أن في مصر يعيش المسلمون والأقباط في حب ووئام، تجمعهم أرض واحدة ونيل واحد، ويدافعون عن وطن لا يفرق بين مسلم ومسيحي أو أبيض وأسود أو غني وفقير، فالكل سواء على أرض مصر، وعلمنا أن الإسلام دين التسامح، وكفى أن تحية الدين الإسلامي الحنيف هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم حفظنا أسماء الله الحسنى، ووقفنا نفهم ماهية السلام الذي اتخذه الله سبحانه وتعالى لنفسه اسمًا..

في المرحلة الإعدادية تعرفت على كيرلس وريمون، وجمعنا فصل واحد، وسمعنا نفس الدرس الذي يؤكد أن الوحدة الوطنية كانت دائمًا سلاح المصريين ضد أي محتل طامع.

ثم توطدت علاقتي بأصدقائي، حتى طلبت السماح لي بدخول الكنيسة، وكان والد كيرلس هو القمص صرابامون، كنت أنتظر اليوم الذي سأدخل فيه الكنيسة لأستكشف ما بداخلها، وقد جاء.. حينما وقع بصري على بوابة كنيسة الأرثوذكس استنكرت بشدة وجود حراس من الجنود قيل لي أنهم أمن الكنيسة، لماذا يحرسون الكنيسة؟ ولماذا لا يأتي ريمون ببعض من الرجال الأقوياء ليحرسونه مني حينما نلهو سويًا فأضربه وأفر هاربًا؟، وهل سأدخل النار جزاء لهوي ولعبي معه؟!

ودخلت الكنيسة لأول مرة، حديقة وارفة الظلال، ونفر من المصلين، وكتب كثيرة، أطفال وشيوخ وشباب يستمعون إلى عظة الراهب، وسيدة تسأله عن أمر يخصها.. ظللت في الكنيسة لبعض الوقت مع أصدقائي الجدد مايكل وجورج وأمجد بعد أن تعرفت عليهم وضحكنا جميعًا، ليست هذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها على الأصدقاء؛ فوالدي يعمل تاجرًا، وكنت قد رأيت معه بعض الزبائن المسيحيين الذين صاروا فيما بعد أصدقاء له؛ حتى إنني أترقب اتصال أحدهم كل عيد ليسأل عن والدي ويهنئه بعيده ويضحكان سويًا من القلب، لم أجد يومًا

والدي الكريم يبيع لهؤلاء المصريين أصحاب الديانة الأخرى أشياء تالفة أو فاسدة، ولم أره يبيع لهم بأسعار أغلى، بل كان يعاملهم كغيرهم من المصريين المسلمين..

وفي الفرقة الثانية بكلية الآداب قسم صحافة نشرت تحقيقًا صحفيًّا بجريدة الدستور عن عميد كليتنا المستهتر؛ مما جعله يكافئني بالفصل لمدة شهر بعد تحقيقات كان هو فيها الخصم والحكم في آن واحد، وبعدها بأيام قليلة تمت إقالته وعدت للكلية مرفوع الرأس وقد أحرزت انتصارًا رفع كثيرًا من معنوياتي.

في فترة فصلي جاءت لي العديد من رسائل زملائي الأصدقاء، وكانت الرسالة الأولى من صديقي ريمون يشكرني فيها على هذا الموقف، ويعرض عليَّ المساعدة..

مراحل حياتنا الأولى تمنحنا بريق الحياة وأيام لا تنسى.. حتى جاء اليوم الذي شهدنا فيه معارك طاحنة ومخزية تقودها طائفية عمياء في مصر المنسية..

قبل انقلاب ١٩٥٢ كانت هناك حياة حزبية ثرية، ولنا في مظاهرات كوبري عباس الذي التحم فيها المصريون ضد المحتل

الإنجليزي وسقطوا شهداء فداء لوطنهم خير المثل.

في ذلك الوقت كان للأقباط دور مهم في الحياة السياسية، وتولوا مناصب وزارية عديدة، وجاءت الثورة الصورية، وعاشت بعدها مصر تحت صيغة الدولة العسكرية؛ مما أدى إلى عزلة الأقباط بعد أن صارت الدولة لا تتعامل معهم كمواطنين، بل صارت تتعامل مع الكنيسة كممثل لهم..

وبعد سنوات من العزلة صار هناك عرفٌ مفهوم ومعمول به، وهو أن الوظائف العليا قد أغلقت في وجه الأقباط، مثل المحافظين ومديري الأمن وعمداء الكليات ورؤساء الجامعات ونواب رئيس الجمهورية.. أثار هذا العرف حفيظة الأقباط، وزاد من عزلتهم في الوقت الذي لم ينتبه فيه أحد إلى أن شركاء هذا الوطن هم شركاء النصر والهزيمة، والفقر والبطالة، والمرض والجهل، وأن مواطني مصر المنسية لا يفرقهم دين أو عقيدة.

بعد خطاب السادات الشهير الذي قال فيه: (يجب أن يعلم البابا أنني رئيس مسلم لدولة مسلمة) وصل الصدام إلى مداه، وتقوقع الأقباط داخل كنائسهم، وصارت الكنيسة هي

الوطن الفعلي لهم، فعبرت عن رأيهم في جميع مناحي الحياة، سواء تعلق الأمر بقضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وتهاوت المؤسسات المدنية؛ ليلجأ الأقباط إلى الكنيسة في كل كبيرة وصغيرة، وأصبح للأقباط دولة داخل الدولة، وغابت المواطنة.

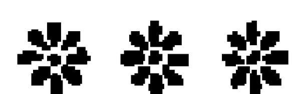
في بلادنا المنسية لا يعرف المصري الفرق بين الدين والدولة، ولا يضع حدودًا فاصلة، ولعل أبرز مثال على ذلك مطالبة البابا شنودة للأقباط بانتخاب الرئيس مبارك في الانتخابات الرئاسية، وهي خطوة اعتبرها كثيرون اشتغالًا من المؤسسة الدينية بالسياسة.

على الدولة إذن أن تحتوي الأقباط باعتبارهم مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات إذا ما أرادت عودتهم إلى المجتمع، كما أن علينا جميعًا -نحن أبناء هذا الوطن- رفض تصرفات غير مسئولة يشوِّه من خلالها من يطلقون على أنفسهم أقباط المهجر صورةَ مصر ويشعلون نارًا وقودها مصر بأكملها.

أتمنى أن ننشر بيننا ثقافة قبول الآخر، والدعوة إلى حوار بناء يحقق للجميع حياة كريمة آمنة؛ فمشاحنات الماضي لا تزال

تحتفظ بها الصدور حتى الآن.. لن يخسر الدين أو يكسب شيئًا إذا ما تركه أحدهم وأراد تغيير عقيدته، والخاسر الوحيد هو وطنٌ قال سيد الخلق رسولنا الكريم عن أهله إن لهم ذمة ورحمًا.

في مصرنا المنسية تناسينا التسامح، واحترفنا اتهام الآخر بالعمالة والتخوين والكفر المبين؛ حتى بات الوطن يئن من جراحه.. فهل لنا أن نضمد جروحه بيد مصرية خالصة؟!



شيء لله يا طاهرة

في المظاهرات تُعرف الأمم (أو هكذا أعتقد).. الساعة الثانية بعد صلاة الظهر، مظاهرة جديدة تنتظرني.. أن ترى الحشود العظيمة من الأمن تستعد لمحاصرة المتظاهرين أمر يحدث كلما تجمع أربعة بعد أن وسوس إليهم الشيطان وتحدثوا بصوت سمعه حراس مصر البواسل عن المحروسة المفروسة..

لجأ المصريون أخيرًا إلى الاعتصامات والمظاهرات والإضرابات بصورة متكررة.. أحب هذا الاجتهاد الراقي، خاصة وأن معظم أشكال الاحتجاجات تكون في صورة سلمية.. ومن يكره استرداد حقه إلا الجبان؟!

أراقب فلاش الكاميرا بعد أن ارتديت البنطلون الجينز؛ ربما أحتاج إلى الجري، والجري دائمًا كل الجدعنة.. بطاقتي الصحفية أحملها وأنا لا أكترث بأهميتها، خاصة وأنني أنتمي إلى صحافة الناس.

مظاهرات هذا الزمان قد تطعمك وجبة دسمة من الركل، الضرب، وتهشيم الكاميرا، ناهيك عن سباب علني فيه من

الصفات الحيوانية ما يشعرك بأنك في حديقة حيوان الجيزة..

قرأت الفاتحة وتوكلت على الله.. إلى هناك.. في مصر لا تنفصل السياسة عن الدين، وفي هذا المكان على وجه التحديد يتلاقى البشر على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، هنا وجدت الحركات الاحتجاجية ضالتها المنشودة.. بدأ الهتاف بصيحة فيها من القوة الكثير، يردد المتظاهرون في صوت واحد جملة واحدة.. قلوبهم تنتفض حماسة، وعقولهم لم تعد تقبل التفاؤل، وعلت أصواتهم: (يا ست يا طاهرة خلصينا من القهرة).

هي إذن أم العواجز (السيدة زينب) يسألها الجميع النجدة، همهمات ثائرة، ووجوه غاضبة، ورجال الأمن تفرض سيطرتها، أنهيت عملي بانتهاء المظاهرة، وقررت أن أستكشف عالم السيدة.

حالة مصرية خالصة، هدوء يتسلل إلى الأسواق ساعة العصاري، ومحلات اعتلتها لافتات ذات أسماء مشتقة من روح المكان.. موسيقى عصافير الأشجار تختلط بأصوات مواتير المنازل..

مباني السيدة القديمة ذات الطابع الأثري والآيلة للسقوط

تتجاور وتتقابل مع الأبراج الحديثة، دعوات المتسولين تجعلك راضيًا تدفع بالتي هي أحسن موزعًا عطفك على كل سائل وهو يدعو لك.. كتب دينية وترمس وذرة مشوية.. العمال وبائعو السبح ولعب الأطفال، عطور الفل والياسمين وبخور..

الأسواق العشوائية أتاحت الفرصة لظهور أنشطة أخرى مثل المقاهي المتنقلة.. صينية يحملها شاب أسمر البشرة عليها أكواب الشاي.

في مصر المنسية الجميع يتحايل على الفقر كي يأمن مهلكة الحاجة، وحول مسجد السيدة أتى العاطلون بأحلامهم وآمالهم، أم العواجز تنصر المظلوم.. هكذا يؤمن محبو السيدة.. ما بين أطباق الفول ورائحة الكفتة أشعر بالجوع الضاري والحيرة القاتلة، أخيرًا ينتصر الفول الذي يختلف بالتأكيد عن فول عم "صالح تلوث" على رأي سامح مرعي وسيد كمال، شيخ يداعب لحيته وهو يغني بصوت جميل: (حلت البركة عَ الشوارع والبيوت.. أصل المقام طاهر ما يسكنش فيه العنكبوت، من قِبلي رايح من بحري جاي، يرمي السلام عَ السيدة وأهل الميدان...)

اعتذرت لمقاطعته، وطلبت أن يعيد عليَّ ما قال بعد أن عرفّته بنفسي، ضحك الشيخ وقام من جلسته، ثم دعاني للجلوس معه في دكانه الصغير.. أردف قائلاً:

- هذا الدكان أعمل به منذ عشرين عامًا، وأبيع شرائط القرآن الكريم ومواويل المداحين.

يرفض شيخنا أن يبيع شرائط "الهشك بشك" كما يسميها؛ فهو يتمنى رضا الله، ويخشى هذا الفسق.

تاه نظري للحظات بين مشاهد الباعة الجائلين والأسواق الشعبية والوجوه المنهمكة من فرط العمل.. غير أن جمال صوته جذبني وهو ينشد موال (شيء لله ياطاهرة.. يا أم العواجز)..

سور الكتب بالسيدة يحتوي على العديد من الدكاكين، وندوات أخرى لا تخلو من التنكيت والتبكيت.

على الرغم من شعبية السوق إلا أن كثيرًا من المشاهير يحرصون على زيارته بصفة دورية.. ندوة عم جابر.. صالون ثقافي يحضره عدد من المفكرين والأدباء والمثقفين، ينظمه عم جابر بصفة أسبوعية. هناك أيضًا في سور السيدة لوحات تتحدد أسعارها حسب الحجم وذائقة المشتري، حكى لي فنان تشكيلي

يعرض لوحاته أن إحدى السائحات سألته عن سعر لوحة أعجبتها فأخبرها بأن ثمنها أربعون جنيهًا لكنها رفضت، ومن شدة إعجابها باللوحة دفعت له مائتي جنيه، في أوروبا والدول المتقدمة يقدرون الفن ويتذوقون جماله!!

عم جمعة شاهدني ألتقط صورة لمقام السيدة فإذ به يقترب مني ويقدم لي كوبًا من الشاي ويسألني.. إيه رأيك؟

عرفت في حديثه معنى العشق والانتماء لهذا المكان.. ثم حاول أن يضيف قليلاً فأخبرني أن الأستاذ سعيد صالح الممثل المعروف جاره، وفي الشارع المقابل لمنزله يسكن الأستاذ محمود سعد الإعلامي المتميز، كان من البخل أن أترك عم جمعة الكريم دون أن أخبره بقصة الشاعر الجميل أحمد رامي، والذي ولد في السيدة وعاش فيها وقدم أجمل قصائد الحب التي أسعدتنا بها كوكب الشرق أم كلثوم، فضفض عم جمعة:

- نفسي يا أستاذ أموت هنا بين أهلي وناسي، ويصلوا عليًّا في مسجد السيدة..

ربت على كتفيه مبتسمًا وأنا أدعو له:

- ربنا يعطيك طولة العمر يا عم جمعة.

أحلام مشروعة

في مصر المنسية يحلم الناس.. لا سيما الشباب.. الحلم فريضة على كل إنسان، وعادة لا يقف اليأس والإحباط مانعًا أمامه، بل يتخذ منه دافعًا ملحًّا، ويظل طوال الوقت في محاولات مستميتة لتحقيق حلمه حتى يستمتع به، أو هكذا يعتقد شباب مصر المنسية.. ولأن الكثير ينقصهم؟؟؟؟ لذا فإن أحلامهم عديدة وخيالية..

ومصطفى الذي عرفني بنفسه قائلاً (بلاش أسئلة انت ابن مين في مصر وشغال إيه؛ لأن أنا فقير ابن فقير وعلى باب الله) أحد هؤلاء الشباب.. شاب مصري معجون بطيبة المصريين رغم مشاجراته التي ذاع صيته بسببها.. قرر ذات صباح أن يتحدى الفقر ويصبح من أثرياء المحروسة.. ولم لا..؟! لو بطلنا نحلم نموت..!

لا تتعجب وأنت تستمع إليه فيخبرك أن حكايته لا تختلف كثيرًا عن الرئيس الراحل أنور السادات، يتخذ مصطفى

من السادات نموذجًا للشاب المكافح، ويردد دائمًا: (أنا زي الرئيس السادات.. شفته في الفيلم اتبهدل إزاي؟!).

في مصر المنسية الحلم والأمل، وهناك من يتمنى الإصلاح وتغيير الواقع الأسود، مصطفى يردد نفس المصطلح الذي يسمعه من الساسة والنخبة وصفوة المجتمع:

- فاكر لما الزعيم السادات قال علشان تغير الواقع لازم تغير أفكارك الأول.. أنا كمان قررت أغير أفكاري، ومش محتاج أكتر من سنة وأبقى مليونير بعرقي، وأحط صباعي في عين التخين اللي شايف نفسه وبيتنطط على خلق الله.

هي إذن نزعة التمرد على الفقر والحاجة وأموال الأغنياء الحرام، وبعض التمرد مباح. في حديث مصطفى تسمع العبر فهو يرى أن (اليد التي لا تعمل نجسة)؛ لذا لا يعبأ مصطفى بأقاويل الناس في مجتمعنا المريض والمأفون، ويفضل أن يعمل في مهنة قد يراها المجتمع وضِيعة لكن نظرته لها مختلفة، مصطفى يؤكد للجميع:

- وإيه يعني لما اشتغل زبال.. إنت عارف يا أستاذ أنا

ممكن اكسب كام في الشهر..؟ مش أقل من ١٥ ألف جنيه.

هكذا يتحدى الشاب مجتمعًا بات يعاني من مظاهر خادعة وكاذبة..

- فيها إيه لما أشتري عربية كارو وحمار وأتفق مع أصحاب الشقق اللي بيدفعوا فلوس النظافة (ثلاثة جنيهات) غصب عنهم على فواتير الكهرباء ومشكلتهم مع الزبالة زي ما هي، إيه يعني ٣ جنيه في الشهر بالنسبة لأصحاب الشقق؟ لكنها تفرق كتير لو اللي هيجمع الزبالة يتفق مع السكان في ست أو سبع شوارع، وكل شارع فيه مش أقل من ١٠٠ شقة، شوف بقى أنا ممكن أكسب كام!!.

دراسة الجدوى التي أعدها مصطفى بفطرته عن هذا المشروع العملاق أعجبتني، ويخطو الحالم نحو طريق الثراء فيذهب فعلاً إلى أحد الأشخاص الذين يقومون بتصنيع عربات الكارو ويصنع له عربة كفاحه، يتحدث عن فرحة أهله به وهو في غاية السعادة وكأنه انتصر على الجميع:

- أمي أول ما شافتني جايب العربية الكارو والحمار افتكرتني سرقتهم، وصوتت ولمت الشارع كله عليًا.. المهم قعدت أهديها وفهمتها الحكاية قامت سكتت، لكن الناس والجيران اللي اتلموا على الصويت بتاعها ما سكتوش، اللي يقولي فكرة حلوة يا درش وربنا يهديك، واللي يدعيلي بإن ربنا يفتح عليًا ولقيتهم بيعطوني التلاتة جنيه"

في نشوة المال قال لي مصطفى:

- وعهد الله يا أستاذ أنا جمعت أكتر من خمسين جنيه وأنا واقف.. قامت أمي مزغرتة.

أحلام مصطفى بدأت تلوح في الأفق، وراح هو ينشط في عمله طلبًا لرزق الله وانتقامًا من نظرة المجتمع الدونية، بدأ يتحدث مع سكان الأحياء المجاورة ويتفق معهم على أن يأخذ منهم القمامة مقابل ثلاثة جنيهات شهريًا، حتى رزقه الله بأكثر من ألفي شقة، وأصبح دخله الشهري لا يقل عن ستة آلاف جنيه، ولا يزال ينوي توسيع نشاطاته.

مصر المنسية أهلها دومًا طيبون، ولا يعرفون الحقد

والضغينة والتعالي، لم ينس مصطفى أولاد منطقته، وقرر أن يعطيهم مما أعطاه الله، رد:

- شغلت معايا تلات صنايعية من أولاد منطقتي حتى علشان كله يرزق وأحسن من قعده القهوة، وكمان كل واحد فيهم يشوف مستقبله.

بالطبع لم يقرأ مصطفى كتب التنمية البشرية، فهو لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كتب سطور النجاح الصعبة في مصر المنسية. أخذتني الحيرة حين سألني:

- تفتكر ممكن أكون رئيس؟!

وضحك قليلاً ثم قال:

- طيب بلاش رئيس، قول وزير!

أومأت برأسي له قائلاً:

- ومين عارف!

ترى كم وزيرًا في مصر يتمتع بعقلية مصطفى المكافحة ضد الفقر والذل والحاجة؟!

نهضت حتى أذهب إلى عملي فيما شد على يدي والبسمة على وجهه الأسمر وهو يقول:

- علشان تغير الواقع.. لازم تغير أفكارك الأول.

* * *

الشيخ سيد.. اصحى يا نايم

عرفه أهالي حي الأنفوشي وهو يناديهم بعبارته الرمضانية (اصحى يا نايم.. قوم وحد الدايم)..

يرتبط الشهر الكريم في مدينة الإسكندرية بمظاهر عدة، منها الكنافة والمكرونة ولقمة القاضي وياميش رمضان وصلاة التراويح، والشيخ سيد الذي يحبه الجميع.

صوته يذكرك بالشيخ محمد رفعت وآذان صلاة المغرب؛ فهو يعشق مهنته، تلك المهنة الشعبية التي تعتمد على الكلمات والأناشيد والطقوس الخاصة البسيطة.. فهي المهنة المحببة إلينا والمحفورة على جدار ذكرياتنا منذ نعومة أظافرنا والتي يرتبط بها الأطفال قبل الكبار، شخصية أقرب إلى الفنان الذي يؤدي دور البطولة على خشبة المسرح، مدة ظهوره هي ٣٠ يومًا فقط في ليالي رمضان، أما باقي الأبطال فهم الطبلة والعصا وصوت جهوري ينادي ويتغنى.. يا للروعة!

إنه "المسحراتي".. تلك الشخصية التي ينتظرها الناس

كل رمضان لإيقاظهم في موعد تناول السحور، ويرى أن إيقاظ النائم في شهر رمضان مهمة ربانية.

استضافني في بيته، وأخذ يحكي عن ذكرياته مع الصائمين والمقرئين وزملاء المهنة، وطبلته التي يبلغ عمرها خمسة عشر عامًا واشتراها من خان الخليلي بعد أن صلى المغرب في مسجد الحسين وزار المقام ودعا الله أن يوفقه في حياته ويرضى عنه ويدخله الجنة مع أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

في حكاياته تحن إلى مصر التي ضاعت، ورمضان البركة، وحب الناس كان من أهم الأسباب التي ساقها الشيخ سيد المسحراتي لشعوره المرير بأن زماننا لم يعد كزمن جيله ومن قبله.. رغبة المصريين في حياة الترف، وابتعادهم عن شرع الله، خاصة مع كثرة مستحدثات العصر، من التليفزيون والقمر الصناعي الذي يشاهد الناس من خلاله ما يغضب الله، على حد قوله، وجهاز الكمبيوتر وجلوس الشباب عليه بدلاً من طاعة ربهم، والجري وراء دنيا فانية وأموال لا يجني من وراءها الإنسان إلا التعب والذنوب، كما يقول مسحراتي الإسكندرية.

يبرهن حديثه فيقول إن النبي صلى الله عليه وسلم شغَله

الغرض الأسمى عن الغرض الأدنى، وهكذا يتخذ من الرسول الكريم قدوة له في الزهد وطاعة الله وخدمة الناس.

يحفظ الشيخ سيد القرآن الكريم، ويحكي عن بداية عمله وهو يستند على عصاه الخشبية:

- ورثت المهنة عن والدي الذي كان يحبه الجميع، وكنت وأنا طفل أعشق شهر رمضان، وأطلب من والدي اصطحابي معه أثناء سيره في شوارع الإسكندرية، ثم مات والدي وعملت في عدة مهن حتى أردت أن يتوفاني الله وهو راض عني فاخترت أن أعبد الله وأخدم الناس.

- ولكن كيف ظهر المسحراتى؟

بداية كان المسلمون يعرفون وقت السحور في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بأذان "بلال بن رباح"، ويعرفون الامتناع عن الطعام بأذان "عبد الله بن أم مكتوم"؛ فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن بلالًا يؤذن بليلٍ فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم". وفي مكة كان "الزمزمي" ينادي من أجل السحور، وكان يتبع طريقة خاصة بحيث يرخي

طرف حبل في يده يتدلى منه قنديلان كبيران حتى يرى نور القنديلين من لا يستطيع سماع ندائه من فوق المسجد.

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية تعددت أساليب تنبيه الصائمين؛ حيث ابتكر المسلمون وسائل جديدة في الولايات الإسلامية، من باب أن التنبيه على السحور دلالة على الخير وتعاون على البر، ومن تطوع خيرًا فالله يخلفه.

من هنا ظهرت مهنة المسحراتي في عصر الدولة العباسية، وفي عهد الخليفة المنتصر بالله. ويذكر المؤرخون أن المسحراتي ظهر إلى الوجود عندما لاحظ والي مصر "عتبة بن إسحاق" أن الناس لا ينتبهون إلى وقت السحور، ولا يوجد من يقوم بهذه المهمة آنذاك؛ فتطوع هو بنفسه لهذه المهمة، فكان يطوف شوارع القاهرة ليلاً لإيقاظ أهلها وقت السحر، وكان ذلك عام ٢٣٨ هجرية، حيث كان يطوف على قدميه سيرًا من مدينة العسكر إلى مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط مناديًا الناس: "عباد الله تسحروا فإن في السحور بركة".

وفي عصر الدولة الفاطمية أصدر الحاكم بأمر الله الفاطمي أمرًا لجنوده بأن يمروا على البيوت ويدقوا على الأبواب بهدف

إيقاظ النائمين للسحور، ومع مرور الوقت تم تخصيص رجل للقيام بمهمة المسحراتي كان ينادي: "يا أهل الله قوموا تسحروا"، ويدق على أبواب المنازل بعصا كان يحملها في يده.

تطورت بعد ذلك ظاهرة التسحير على يد أهل مصر؛ حيث ابتكروا الطبلة ليحملها المسحراتي ليدق عليها بدلاً من استخدام العصا، هذه الطبلة كانت تسمى "بازة"، وهي صغيرة الحجم يدق عليها المسحراتي دقات منتظمة، ثم تطورت مظاهر المهنة، فاستعان المسحراتي بالطبلة الكبيرة التي يدق عليها أثناء تجوله بالأحياء وهو يشدو بأشعار شعبية وزجل خاص بهذه المناسبة، ثم تطور الأمر إلى عدة أشخاص معهم طبل بلدي وصاجات برئاسة المسحراتي، ويقومون بغناء أغانٍ خفيفة؛ حيث شارك المسحراتي الشعراء في تأليف الأغاني التي ينادون بها كل ليلة.. ومن أشهر هذه الأشعار:

اصحى يا نايم وحد الدايم..

وقول نويت بكرة إن حييت..

الشهر صايم والفجر قايم.. رمضان كريم..

ولما للمسحراتي من طقوس وأشعار؛ فقد أصبح شخصية محببة للصغير قبل الكبير، وقد ارتبط فانوس رمضان بالمسحراتي؛ حيث كان الأطفال يحملون الفوانيس حول المسحراتي في الليل ويغنون على أنغام الطبلة مثل:

حالو يا حالو.. رمضان كريم يا حالو..

فك الكيس وإدينا بقشيش..

يا تروح ما تجيش يا حالو..

ومن مصر انتشرت هذه المهنة في الولايات الإسلامية، فقد كان أهل الشام ذوي طقوس خاصة تحيط بالمسحراتي؛ حيث كان المسحراتية في الشام يطوفون على البيوت وهم يعزفون على العيدان والصفافير وينشدون الأغاني الخفيفة.

وفي بغداد كان "ابن نقطة" أشهر من عملوا بالتسحير، حيث كان موكلاً إليه إيقاظ الخليفة الناصر لدين الله العباسي، فقد كان ابن نقطة يتغنى بشعر يسمى "القوما" مخصص للسحور، وهو شعر شعبي له وزنان مختلفان ولا يلتزم فيه باللغة العربية، وقد أطلق علية اسم القوما لأنه كان ينادي ويقول: "يا

نياما قوما.. قوما للسحور قوما"، وقد أعجب الخليفة بسلامة ذوقه ولطف إشارته، وأعطاه من الأجر ضعف ما كان يأخذه أبوه.

ظهور المسحراتي ارتبط بحاجة الناس إلى من يوقظهم من النوم في ليل رمضان، فلم يعرف الناس قديمًا وسائل الإعلام أو التنبيه، وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة هي القناديل التي تعلق بين مآذن المساجد ويُستدل من نورها على وقت الامتناع عن الطعام.

وقد ارتبط المصريون بالمسحراتي؛ وذلك لعدة أسباب، أهمها أن ظهور المسحراتي كان سببه العلاقات القوية أو الحميمة بين الناس في الحارات، والحارات هنا ليست بمفهومها حاليًّا، بل كانت تطلق على الأحياء؛ فالحارة تعني جزءًا من المدينة له باب وحراس وكبير، بمعنى شيخ حارة، فهذه الحميمية بين سكان الحارات في الفسطاط أدت إلى وجود من يتطوع لإيقاظ أهلها في ليل رمضان، وقد كان لكل حارة المسحراتي الخاص بها الذي يتطوع لتسحير أهلها كل عام.

كما أن المصريين قد حولوا رمضان إلى مناسبة اجتماعية بخلاف الشعوب الأخرى؛ فالمصري كان يغني للبلح مثلاً، وهو أحد مظاهر رمضان، كذلك صلاة الفجر ترتبط بالتسابيح والابتهالات..

فالصيام إذن لدى المصريين مناسبة ارتبطت بالأغاني ذات الصبغة الدينية، ومن ثم جاء ظهور المسحراتي صاحب الصوت الجميل الذي يغني أثناء إيقاظه الناس في البيوت ومن حوله الأطفال ينشدون ويغنون ليرتبط به المصريون ارتباطًا وثيقًا، صغيرهم قبل كبيرهم.

الشيخ سيد يبدأ عمله في أول ليالي شهر رمضان الكريم؛ لذلك ينتظر طويلاً رؤية الهلال، ويجلس أمام الإذاعة ليسمع البشرى العظيمة، وقبل أذان الفجر بساعتين يحمل معه رفيقة دربه، طبلة الحسين، والتي كانت شاهدًا على ذكريات رمضانية في الزمن الجميل، ينزل الشيخ إلى أحياء مدينته الساحلية ليشعر الناس معه بلذة الشهر، ويحفظ بعض الجمل الروحانية، والتي يرى أنها تعين المسلم في رمضان بل ويرتبط رمضان بها..

بعض الأعيان من أهالي الحي يفضلون نداء المسحراتي عليهم وبأسمائهم كنوع من التمييز، مثل الحاج حمزة تاجر المفروشات الذي يصحو في الليالي الإيمانية على صوت المسحراتي وهو يناديه: (ياعم حمزة يا صاحب الكرم.. ربنا يكرمك وتزور الحرم).

سبعون عامًا عاشها الشيخ سيد ولا يزال يؤدي مهمته ما استطاع إليها سبيلاً وغالبًا لا تزيد عدد ساعات عمله عن ساعتين في الليلة الواحدة، غير أنه يشعر بتعب السير الطويل، فهو يتجول يوميًّا قرابة خمسة كيلو مترات طوال أيام الشهر.

يتحدث في الدين ويشرح لي حديث رسول الله عن شهر رمضان فيقول والاجتهاد يملؤه:

- اختص المولى تبارك وتعالى أمة الإسلام بهذا الشهر دون غيرها من الأمم وقال النبي الكريم: (أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسًا لم يعطهن نبي قبلي: أما الأولى فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله إليهم ومن ينظر الله إليه لا يعذبه أبدًا، وأما الثانية فإن الملائكة تستغفر لهم كل يوم وليلة، وأما الثالثة فإن الله يأمر جنته يقول لها

تزيني لعبادي الصالحين يوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي، وأما الرابعة فإن رائحة أفواههم حين يمسون تكون أطيب من ريح المسك، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة منه غفر الله لهم جميعًا، فإن العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم).

يبتسم الشيخ سيد وهو يؤكد أن خير الأمة في الرجوع إلى كتاب الله بعيدًا عن أي تناحرات وخصومات، ويتمنى لو خرج كل عام من هذا الشهر بنعمتي الهداية والتقوى؛ فهما سلاحه الأقوى في الدنيا..

في صباح عيد الفطر المبارك يطوف عم سيد أرجاء مدينته ليهنئ الصائمين الذين يبادلونه التهنئة، ويكرمونه ببعض النقود، وهو يحمد الله الذي أعطاه من فيض نعمته.

حينما أنهيت شرب الشاي الذي قدمه لي صديقي الشيخ طلبت منه أن أتوضأ لأصلي قبل أن تفوتني صلاة الظهر وأنا على سفر، فأدهشتني إجابته، بيت الرجل الكريم لا توجد به مياه للشرب!! (فالحكومة تبيع الغاز لليهود، ولا تعطي المياه للمصريين) على حد قوله، وعرفت منه أن السفير الأمريكي

السابق التقى به أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية وصافحه غير أن الشيخ سيد رفض مصافحته؛ فهو "من يقتل المسلمين ويسفك دمائهم فكيف لمسلم أن يصافحه..

سألته عن أحلامه فقال لي:

- وهل في العمر وقت للأحلام؟!

فقط يتمنى أن يحج بيت الله الحرام، ويقبل الكعبة، ويسلم على النبي الكريم في قبره قبل أن يرحل عن هذه الدنيا الزائلة.

عم سيد المسحراتي هو الوحيد في مدينته الذي يستيقظ المسلمون على صوته في رمضان بعد أن مات اثنان من زملائه، فأطرح السؤال عليه:

- ومن يخلفك يا شيخنا؟

يخشى الشيخ من اندثار المهنة بعد موته؛ فأولاده متزوجون، وجميعهم خريجو جامعات، ويعملون في مهن أخرى، ولا يعرف من الذي سينال شرف إيقاظ الصائمين..

- أنا خايف يابني تضيع المهنة لما أموت زي ناس كتير وحاجات كتيرة ماتت في البلد دي.

لم ينس المسحراتي أن ينتقد منافسه الحالي، وهو المنبه؛ فهو يرى أن هذا الشيء غير مرغوب فيه، وأن الكفار (يقصد الصينيين) صنعوه لنا حتى ننشغل عن عبادتنا وننسى عاداتنا وصوت القرآن الكريم، ثم ينحاز إلى البسطاء من أمثاله ويقول:

- إحنا بنحب نسمع كلام ربنا من المسلمين والعلماء وأصحاب الأصوات الجميلة علشان يدخل القلب، إنما من منبه بحجارة فده حاجة عجيبة.

جذبني في حديث عم سيد صوته النديّ الذي يحكي تاريخ مهنة باتت على وشك النسيان وعيونه التي ترى فيها ليالي رمضان الدافئة.

تركته وأنا أفكر: هل سيستمتع أولادي وأحفادي بهذا الصوت الرمضاني الجميل وروح الشهر الكريم؟ أم إن المسحراتي أيضًا سيصبح عما قريب.. من مصر المنسية؟!

* * *

طـه.. في شوارع المحروسة

رأيته هادئ الملامح، يقظ الذهن، يبتسم في وجهك حين يراك فلا تملك إلا أن تبتسم له بعد أن ندرت البسمة بيننا.

كان يجلس على صفيحة معدنية يخالها العابرون من النظرة الأولى صندوق أحلام لا يتسع إلا لنصف حلم مخضب. مطأطئًا رأسه إلى الأسفل، هكذا اعتاد دائمًا. وهكذا شعار ماسحو الأحذية المدللة..

لا شموخ للذين يتعاملون مع الأحذية العابرة، صفعة الزمن التي تلقاه على خد ضميره الأيمن كانت كفيلة بجعله لا يخجل من أنه يعمل ماسحًا للأحذية .الفقر له قدمان يأتي إلينا دائمًا، ونحن أيضًا لنا أقدام لكن كيف نذهب للترف؟ يختزل بعينيه، اللتين تستضيفان صقرًا فيهما، كل أقدام المارة. أحذية في كل مكان، حمراء، بيضاء، خضراء، سوداء. سوداء سوداء.. ودائمًا كان لا يعشق ذلك اللون.

يلبس بنطالًا ينافس فيه لوحة من لوحات "فان جوخ"؟

إذ يحمل البنطال ماركات عالمية من الرقع التي تسد فم جروحه على شكل طوابع بريدية انتهت مدة صلاحيتها، وجفَّ عليها لعاب الموظف اللاعق، مطاطتان تشدان البنطال إلى كتفيه المسيلين كأيدي جنود يقفون أمام جنرال تافه. قميص شاحب اللون، مصاب بفراغ جسدي له كم واحد! حذاؤه لا يسترعي اهتمام أحد؛ لذلك لا يحسده عليه العابرون.. هكذا جرت العادة، فالإسكافي حاف، والنجار لا باب لمنزله، والحوذي حصانه لم يخلق بعد، والطباخ جائع دائمًا، والصياد ليس لديه خريطة البحر أو النهر، والجندي العربي في كل معركة شريفة لا بندقية له ولا مدفع، سوى بصقة على وجه الأعداء، أو.. يصرخ فيهم أنه يكرههم، والعدَّاء بلا قدمين، والشرطي لا مخفر له، والمرأة الحبلى لا زوج لها! والبلابل لا حناجر لديها، والريح لا سماء لها، والسماء بلا سماء، والأرض لا تراب لها، أما الفقراء فبلا مأوى، بلا أذرع، بلا أرجل بلا أفواه، بلا أجساد، لا شيء لهم سوى ثمل مترنح، لا صحو له، دليل سياحي يقودهم إلى حيِّنا المتخم بالطين! لذلك لن أبدل هذا الحذاء الذي صار صديقًا لقدمي، فهو خريطة العالم المنسي بغباره، والطرقات المستديرة.

هكذا قال طه، ينادي والحب يملؤه بكلمات من نوعية (تلمّع يا باشا)، المهنة الشاقة تلزمه أن يجعل من زبونه البرنس العظيم، حتى يستسلم راغبًا في مزيد من الأبهة بين رفاقه، وسرعان ما يقدم له قدميه ليبدأ طه في ممارسة عمله..

إنه ماسح الأحذية الذي يمنحك صورة أولاد الأكابر نظير جنيه مصري واحد، وصفه طه بالجنيه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

جمعني لقاء رائع مع الشاب المصري على مقهى معروف في ميدان رمسيس وبصدفة جميلة باغتني صوته المنخفض قائلاً (تمسح يا بيه؟).. لا يبدو على شاب مثلي كرامات البهوية التي ألغيت منذ زمن بعيد، ولا أحب ارتداء الملابس الرسمية أو البدل الإفرنجية إلا في المناسبات والأعياد القومية وحفلات إلقاء الشعر، وأنا أعترف (ما بين عينيها سطور كتبت بحروف من نور)..

كنت أفكر في مستقبل مصر، وأحاول رسم ملامحها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية، القدر دائمًا يسيطر على أرواحنا، القدر أتاني بـ(طه) هدية من السماء.

ضحكت كثيرًا من طلبه الكريم بعد أن منحني لقب البيه، ووافقته، فجلس على كرسي صغير وأمامه الصندوق الخشبي وبعض دهانات الأحذية المختلفة.

أخذ يعمل في صمت حتى سألته عن بلدته ولماذا يعمل كماسح للأحذية وهو شاب قوي يستطيع أن يعمل في مهن أخرى أكثر ربحًا وراحة؟!

كانت أسئلتي بمثابة القنبلة التي انفجرت وأفرزت إجابات شاب مصري حالم تمنعه المحسوبية من التعيين في الجامعة ويفشل في البحث عن فرصة عمل ثم يقرر أن ينجح، رمقني بنظرات الثأر وهو يبدل جلسته ويحكي عن بلدته الكائنة في إحدى محافظات الوجه القبلي والشهيرة بصراعات الثأر التي لا تنتهي إلا بعد إزهاق الأرواح وانتقام الدماء، لمست في حديثه عقلية تختلف كثيرًا عن شباب جيله، تخرج طه في كلية الحقوق، ويصر هو على تسميتها كلية الوزراء؛ تعظيمًا لدورها في تخريج الوزراء والقضاة ومشاهير المجتمع في السياسة والقانون، غير أن طه لم يحالفه الحظ مثل زملائه من خريجي نفس الكلية، ولما يأس في البحث عن فرصة عمل في الحكومة أو القضاء شعر بغربة داخل بلده.. طه هو الثاني على دفعته! والأولى فتاة تعمل اليوم

معيدة بالكلية، قابلها في بداية العام، وتذكر أيامه في الكلية، واجتهاده الذي ضاع، وسهر الليالي، وأكواب الشاي والقهوة، ومراجع القانون، وحفظه للكتب من الألف للياء.. نسي كل هذا، وفوقه شهادة التخرج، وتقديره المتميز، وترتيبه على الدفعة.. وقرر أن يعمل ولا ييأس.

عمل طه في العديد من المهن فكان سائقًا لميكروباص، ثم خبازًا، ونجارًا، إلى أن استقر في مهنته التي أحبها ولم يتركها مثل سابقيها وهي مسح الأحذية..

لم يشعر يومًا بالتعب والجهد، وتجاهل طه نظرات المجتمع المريض لماسح الأحذية، ولم يتردد في أن يشتري دهانات وصبغات للأحذية، وينزل ليبدأ مبكرًا البحث عن زبائن جدد، مكسبه في اليوم حوالي ثلاثين جنيهًا ينفق منها خمسة عشر جنيهًا على المسكن والطعام والسجائر المحلية، ويشتري بخمسة جنيهات أدوات مهنته ،ويوفر عشرة جنيهات.

يتأثر طه مثل كبار رجال الأعمال في العالم بالأزمة الاقتصادية الراهنة، ويؤكد أن المهنة لم تعد كسالف عهده بها، فالناس في مصر المنسية لم تعد تملك قوت يومها، فكيف يهتمون

بمظهرهم ويمسحون أحذيتهم وبطون أطفالهم أولى بأموالهم؟

الشاب المصري الذي أراد لنفسه أن يعمل حتى لو احتقره الآخرون يرى أن البطالة مرض قاتل لا بد أن نواجهه ونحاربه ويرفع دائمًا شعاره (اسع يا عبد وأنا أسعَ معاك)، ماسح الأحذية أو دارس القانون ينتقد الأحزاب المصرية:

- **أحزاب إيه يا أستاذ؟.. إحنا هنضحك على بعض؟..دي كلها أشكال وصورة.. رئيس الحزب الفلاني تلاقيه بينتقد ويشتم الحكومة الصبح وبيتعشى عندها بليل.. فين المصداقية في البلد؟!**

طرح طه سؤالاً صعبًا أراه محقًّا فيه:

- **كيف لرئيس حزب أو رئيس تحرير صحيفة معارضة أن ينتقد أداء الحكومة وهو الضيف الدائم على موائده؟ أولماذا تختاره الحكومة وإعلامها دون غيره من أصحاب الرأي والفكر الراقي لكي ينتقدها؟**

توقف قليلاً ثم سألني مرة أخرى:

- **تعرف يا أستاذ أنا ليه مش بأفكر في الجواز؟**

أومأت برأسي طلبًا لإجابته، فقال في نبرة حزن:

- الجوّاز النهاردة في مصر مشكلة.. مهر وشبكة وشقة ومصاريف كتيرة، وبيني وبينك أنا كتير بأكون مع الشباب اللي بيعاكس البنات في الشارع... لم يكمل حديثه بعد حين قاطعته بسؤالي:

وكام مرة يا طه عاكست بنت؟

ينفي طه التهمة عن نفسه ويردد:

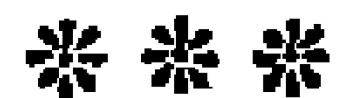
- الحمد لله، والله أنا راجل عارف ربنا وبأصلي، وعمري ما أفكر أعمل الحاجات دي، لكن خلينا نقول إن ملابس البنات الضيقة بتخلي الشباب العاطل يعمل كده.

يضحك طه ساخرًا وهو يتحدث عن أحلامه:

- طبعًا أنا عندي أحلامي. نفسي أتجوز وأعيش مستور وأعمل مشروع، وربنا يتوب عليًا من شغلانة الشقا دي.

الأستاذ طه خريج كلية الحقوق لا يعرف طعم الراحة، فعمله يمتد طوال الأسبوع، ويبدأ في الساعة السابعة صباحًا، ويعود إلى منزله في الثانية صباح اليوم التالي، ويحاول ألا يضيع الوقت منه؛ لأن هذا الزمن لا يرحم الفقير كما يقول.

تأخر الوقت وعليَّ أن أقوم لأ ذهب إلى عملي.. شكرت له حكايته المنسية.. وبدون أن أسأله مثل الراحل أحمد زكي: (اضحك علشان الصورة تطلع حلوة).. كانت الصورة فعلاً حلوة لا سيما وطه يضحك فيها وبين عينيه ألف آه!.



الأسطى أم هبة..

هناك، حيث لا توجد مقراتٌ للمجلس القومي للمرأة.. ولا ترى سوى الفقر وعذابه، في طريقي إليها تأملت قليلاً، وذهبت بخيالي إلى أحلام وردية، ماذا لو زارتها سيدة مصر الأولى، في شوارع لا تعرف اهتمام الحكومة أو لا تعترف بها الحكومة، بيوت سكنية يقطنها بشر مثلي ومثلك تطل على بحيرة من مياه الصرف الصحي وأكوام عملاقة من القمامة، يتمشى بينها الدجاج باحثًا عن رزقه وسحب من الذباب تعلو المنطقة.

صافحتها وهي تستقبلني في محل عملها، قدمت لي الشاي في ورشتها، نعم.. في ورشتها، الورشة جزء من منزلها وحياتها. وعلى الرغم من نبرة صوتها المليئة باليقين والقناعة، إلا أن الشقاء يرتسم وجهها، أوقفتْ صوت ماكينة تقطيع الخشب وأخذت تروي حكايتها.

توفي زوجها بعد أن ترك لها ابنة في الثانية من عمرها، ومائة وخمسين جنيهًا لا غير أُنفقت قبل مغرب اليوم السابع

للوفاة، وأصبحت، (أم هبة) "عَ الحديدة"، الحياة بلا زوج أشبه بسفينة في عرض البحر تلاطمها الأمواج العاتية..

ضاقت الدنيا بأم هبة، ولم تجد مفرًّا من البحث عن وظيفة لتربية هبة دون أن تسأل الناس وحتى يكفيها الله شرورهم.. في صباح يوم الأربعين قررت أن تتحدى الظروف الصعبة، وفي التحدي ألوان من العذاب لا تقوى امرأة على تحملها، غير أن (الأسطى أم هبة) كانت بألف رجل، قامت بإعادة تشغيل ورشة زوجها الذي كان يعمل على ماكينة تقطيع الأخشاب في مدينة دمياط..

أم هبة أرادت أن تتعلم الحرفة فسألت في ذلك ابن أخيها الذي علمها كيفية اختيار الأخشاب وتقطيعها وبيعها في شكل حلايا تهم صناع الأثاث، تعلمت الحرفة في شهرين لا ثالث لهما بعد أن واجهت رفض أقاربها خشية كلام الناس، ولكنها أقنعتهم جميعًا أن العمل عبادة وليس عيبًا وأفضل ألف مرة من سؤال الناس، هبة طفلة تحتاج إلى الرعاية والتربية؛ ما جعل أمها تقسم أوقات يومها إلى ثلاثة.. تطهو الطعام صباحًا، وتفطر مع ابنتها، ثم تنام الطفلة وتنزل الأم لتمارس عملها في الورشة،

وتعود بعد صلاة المغرب إلى شقتها وطفلتها لترعاها وتذاكر لها دروسها وتحضر لها وجبة العشاء.

في ورشتها تتعامل الأسطى أم هبة مع الزبائن بكلمة شرف فلا تخلف موعدًا، ولا تؤخر طلبًا، وتتقن عملها.

وبينما يغلب على أصحاب هذه المهن الشاقة طابع الجدية وملامح الشقاء لا تنسى الأسطى أم هبة أنوثتها فهي تطبخ، وتغسل، وتشاهد التليفزيون، وتشارك الناس مناسباتهم، وتخرج يوم الجمعة مع ابنتها كي تستريح قليلاً من عناء العمل الطويل خلال الأسبوع، يعمل لدى الأسطى أم هبة بعض الصنايعية الذين يحترمونها ويقدرونها، وهي أيضًا تكافئهم جزاء عملهم..

بعد سنوات المدرسة والكفاح التحقت أخيرًا هبة بكلية الألسن، وتفرح أمها بها فتناديها دائمًا بالأستاذة هبة. أم الأستاذة تحلم أن تزوج ابنتها من شاب يسترها ويحميها من حياة الشقاء والتعب، وتتمنى أن تزور بيت الله الحرام قبل أن تلقى ربها.. تشجع أم هبة النادي الأهلي، وتحب بركات ومتعب ومحمد أبو تريكة، وتضع صورة للراحل صالح سليم في ورشتها، وغالبًا ما تستمع إلى مباريات النادي في الإذاعة أثناء عملها.

تسألني: (ما شربتش الشاي ليه يا أستاذ؟) أتناول الكوب الدافئ أو يتناولني.. وطفل لم يبلغ الثامنة من عمره يسألني:

- هو إنت هتكتب عننا في الجرنال بتاعك؟.. هو إحنا غلط ولا إيه؟

كلماته تحرق صدري ألمًا وحسرة.. مَن المخطئ إذن في مصر المنسية؟ أبتسم له وأقبل رأسه.. وأشكر الأسطى أم هبة على كرم ضيافتها.. أغادر الورشة باحثًا عن إجابة لسؤال طفل بريء في مصر المنسية.. من المخطئ؟!

***

أم وليد.. سوق بينا يا أسطي

لها نفس أحلام الفتيات، تحب عروستها الصغيرة، وتقلد جارتها طالبة الجامعة، فتضع كل مساحيق التجميل على وجهها البرىء، ليتحول إلى وجه بلياتشو صغير، تتفنن لتكون تسريحة شعرها أفضل من صديقتها بنت الجيران.

ولكن للقدر كلمته، فجأة تتخلى الفتاة الصغيرة عن حياة الطفولة، وتقرر أن تساعد والدها كبير (التاكسجية) في تربية أشقائها وشقيقاتها، هناك في حي شبرا جلسنا سويًّا، كان حب الناس لها وحبها للناس أول ما لفت نظري من تكرار سلامهم عليها، الجميع يتسابق ليسألها عن أحوالها فهي بنت بلد جدعة، سيدة التاكسي التي لم تفارق يدها عجلة القيادة بحثًا عن لقمة العيش، ترى في حياتها معنى الحب والود والأمان، إنها طبيعة البسطاء في مصر المنسية قالت أم وليد:

- تخيل أنا باشتغل على التاكسي من تلاتين سنة؟

هكذا تفرح بالعمل، فمنذ ثلاثين عامًا شاهد الناس

ولأول مـرة فتـاة صـغيرة تقـود سـيارة تـاكسي، الأمـر غريـب، والغرابة تصنع القصص، ومن القصص ما يشبع رغبة النـاس في الحكي والنميمة، والنميمة صفة أصيلة في سيدات مصر المنسية، وفي أيام قليلة أصبحت الفتاة حديث النـاس في شـبرا، يتحـاكون عنهـا ويتنـدرون قرارهـا المثـير، فكيـف لفتـاة أن تعمـل سـائقة تـاكسي؟! هـي إذن الألسنة التـي لا تهـدأ.. وتمـر الشـهور ويقـرأ والدها الفاتحة مـع عريسـها عـلى قهـوة السـواقين، زوجهـا زميـل المهنـة أراد لهـا أن ترعـى البيـت ولا تخـرج للعمـل مـرة أخـرى في حياتـه، غـير أن حياتـه لم تـدم طـويلاً، فسرعـان مـا تـوفي الشـاب وترك لها أربعة أبناء.

القدر يفرض قوانينه على الـبشر، وإرادة الله فـوق الجميـع، ولكن كيف تعول أم أبناءها الأربعة؟ ومن أين تنفق عليهم؟!

رأت أم وليـد أن الحـل الوحيـد هـو نزولهـا مـرة أخـرى إلى الشارع بحثًا عن رزق أولادها؛ حتى تعلمهم وتستطيع تـربيتهم على أكمل وجـه. تستعيد السـيدة ذكريـات حياتهـا الأولى، وهـي تساعد والدها وتقـود سـيارة التـاكسي في شـوارع البلـد، ووسـط أبناء منطقتها اختارت العمل؛ حتى يعتاد الناس على مهنتهـا مـرة

أخرى وتشعر معهم بالأمان، ثم انتقلت فيها بعد للعمل في وسط البلد بين زحام البشر وضجيج لا يمل أو يكل؛ بحثًا عن مزيد من الأمان إذا ما تعرض لها أحد، أو حدث لها مكروه، أو ضايقها أحد الركاب الظرفاء.

أيام وشهور وسنين تعمل أم وليد، وهي تحمد الله أن رزقها مهنة تعيش وأولادها عليها من مال حلال، وبعد سنوات الشقاء تشعر بالرضا وهي تقول: الحمد لله أولادي اتعلموا ودخلوا الجامعة وزوجت البنتين.

في مصر المنسية كانت أم وليد من أوائل السيدات اللاتي عملن في هذه المهنة، ونزلت إلى الشارع بسبب وفاة الزوج أو الطلاق، غير أن معظم سائقات التاكسي اختفين من الشارع بعد تعرضهن لضغط الأبناء والأقارب؛ خشية سخرية الناس منهن، وحتى لا تقف مهنة الأم حائلاً في زواج البنات، أم وليد لها رأي مختلف:

- أنا علمت أولادي إن المهنة مش عيب، وإن الأحسن ميتحرجوش منها، والحمد لله وصلت معاهم لبر الأمان، وده بفضل السواقة بعد ربنا.

لم يمهل القدر أم وليد حتى أصيبت ببعض المشاكل الصحية بعد أن ظلت تقود سيارتها سنين من الشقاء واللف في شوارع القاهرة، لكنها لا تزال تعشق عجلة القيادة وتستمر في عملها بنفس راضية..

تعاني أم وليد من زملاء المهنة من الرجال فهم يحاربونها في رزقها، ويطلقون عليها الشائعات، لكنها لا تأبه بكل هذه الأفعال، فالله موجود ،ولأنها أول سائقة تاكسي في مصر فإنها مادة دسمة للصحافة المصرية والعربية، ويأتيها الصحفيون من جرائد عدة وتستقبلهم جميعًا.. تسألني:

- **لو سمحت يا أستاذ عايزة أقولك إن اللي زيي كتير، لكن الصحافة مش بتدور عليهم، والناس فاكرة إن اللي زينا قليلين.. صدقني الغلابة كتير..**

صدقت أم وليد.. في مصر المنسية الغلابة كتير.. ثلاثون عامًا من التعب والشقاء والمرارة والأمراض وتربية الأولاد وزواج البنات وعجلة القيادة.. وقصة مواطنة بسيطة من مصر المنسية لا تجد لها حلمًا سوى أن ربنا يسترها في بلادنا.. أصبح الستر هو حلم الجميع.. استرها يا رب!

أبونا مينا

بعيدًا عن صخب الاحتفالات الرسمية.. المحبة قائمة دون الحاجة إلى مقاعد شكلية متجاورة وضحكات مصطنعة، ويظل بابتسامته النقية وتسامحه ومودته مثالاً لرجل الدين الطيب.

أحبه الجميع منذ أن كنا صغارًا نلهو في باحة المسجد الكبير وقد جاء ليسلم على صديقه شيخ المسجد.. لم نشعر يومًا بالخوف من قامته الطويلة أو لحيته الكثيفة، فالرجل علمنا المحبة والتسامح حتى قبل أن نعرف اسمه، أبونا مينا.. عرفته منذ اليوم الأول في المدرسة الإعدادية التي تجاور كنيسة مدينتي..

كان يأتي ونحن نلعب الكرة في ملعب المدرسة وينادي صديقنا فادي ثم يعطيه من الحلوى الكثير، وعندما يفرح فادي يقبله ويضحك هو الآخر.. ثم سرعان ما ينادي علينا جميعًا ويعطينا كما أعطى فادي، ويسألنا عن أمور المدرسة والأصدقاء، ومن فاز في المباراة، ومن يستحق صاحب أفضل أخلاق..

كنت أراهن دومًا أصدقائي أن هذا الرجل يريد منا أن نغير ديننا ونصبح مثله؛ إذ لم أشاهد من ذي قبل صورة لرجل دين مسيحي كمثل أبونا مينا، غير أنني عرفت بعدها أن مسلمي الحي يحبونه؛ لأنه دائمًا ما يشاركهم مناسباتهم وأعيادهم، كان له ابتسامة تحمل عنوانه، وحين يمر علينا يوميًّا لا بد وأن يسألنا: (هل شكرتم ربكم اليوم؟)، حالة من الدهشة تأخذني فأسأله في لحظة جرأة.. (كيف تسألنا عن ربنا ولك رب آخر، ولنا دين ولك دين آخر؟!) فيبتسم ويسألني عن اسمي.. وأجيبه (محمد)، فيقول (عاشت الأسامي يا محمد)، ويوضح أن الله رب كل شيء، وعلى كل الناس أن تعبده كيفما ترى، وتشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وتخافه ولا يفعلون ما نهى الرب عنه.. وأعاود سؤالي مرة أخرى.. (لماذا لم تصبح مثلنا مسلمًا؟!).

فيضحك، ويجيبني أن الله قد خلقنا لنعبده، وكل إنسان يختار كيفية عبادته، وتختلف الكيفية ولا يختلف الجميع على حب الله؛ لأن بحبه سندخل جميعًا الجنة..وعندما أفكر في سؤال آخر أرى شيخ المسجد يسلم عليه بحرارة، (لماذا يسلم عليه أصلًا؟!) هكذا ظللت –ولفترة طويلة– أسأل نفسي..

ضرب لنا أبونا مينا مثالاً في الحب وهو يأمر شابًا يسب الدين في الشارع أن يبتعد عن سب الدين فدين الله أعظم من الإنسان، وحين يسأله صديقي ريمون (هل ده شاب مسلم ولا مسيحي يا أبونا؟) يجيب بحكمته.. (ربنا هو رب كل الناس)..

لذا لا أفهم أفعال من يكرهون الأقباط ويأمرون بالتضييق عليهم وعدم الحديث معهم، وينشرون فكرهم المتطرف بين شباب المجتمع، وعلى نفس الشاكلة نجد أقباط المهجر يسبون الإسلام ويكيلون الاتهامات بغير حق والحق منهم براء، إن المواطنة ليست أغنية جميلة كلماتها أو فئة مضطهدة تفتن الناس، هي سطور مشاركة وحب، فمن يأمر بايذاء الآخر إرهابي لا مصري، ومن يشعل نار الفتنة لكي يجني مصلحة شخصية لا يستحق أن يعيش بيننا.

لقد نسينا في مصر أبونا مينا وشيخ المسجد صباح عيد الفطر المبارك، ولم نتذكر سوى كاميرا التليفزيون ولقطات مصطنعة جلس فيها شيخ وقسيس جنبًا إلى جنب، وكأن في الكراسي المتجاورة يقبع السر!

تبدلت نظراتنا وأصابنا الخوف من مستقبل تنتهك فيه

الحرمات، وتهدر الدماء باسم الدين، وتغيب القيم، ويعلو صوت الجهل والتشقق وتجار التطرف.

في مصر المنسية علينا أن نستعيد الفهم الصحيح للدين؛ فالجهل لن يسير بنا إلا نحو الهاوية..

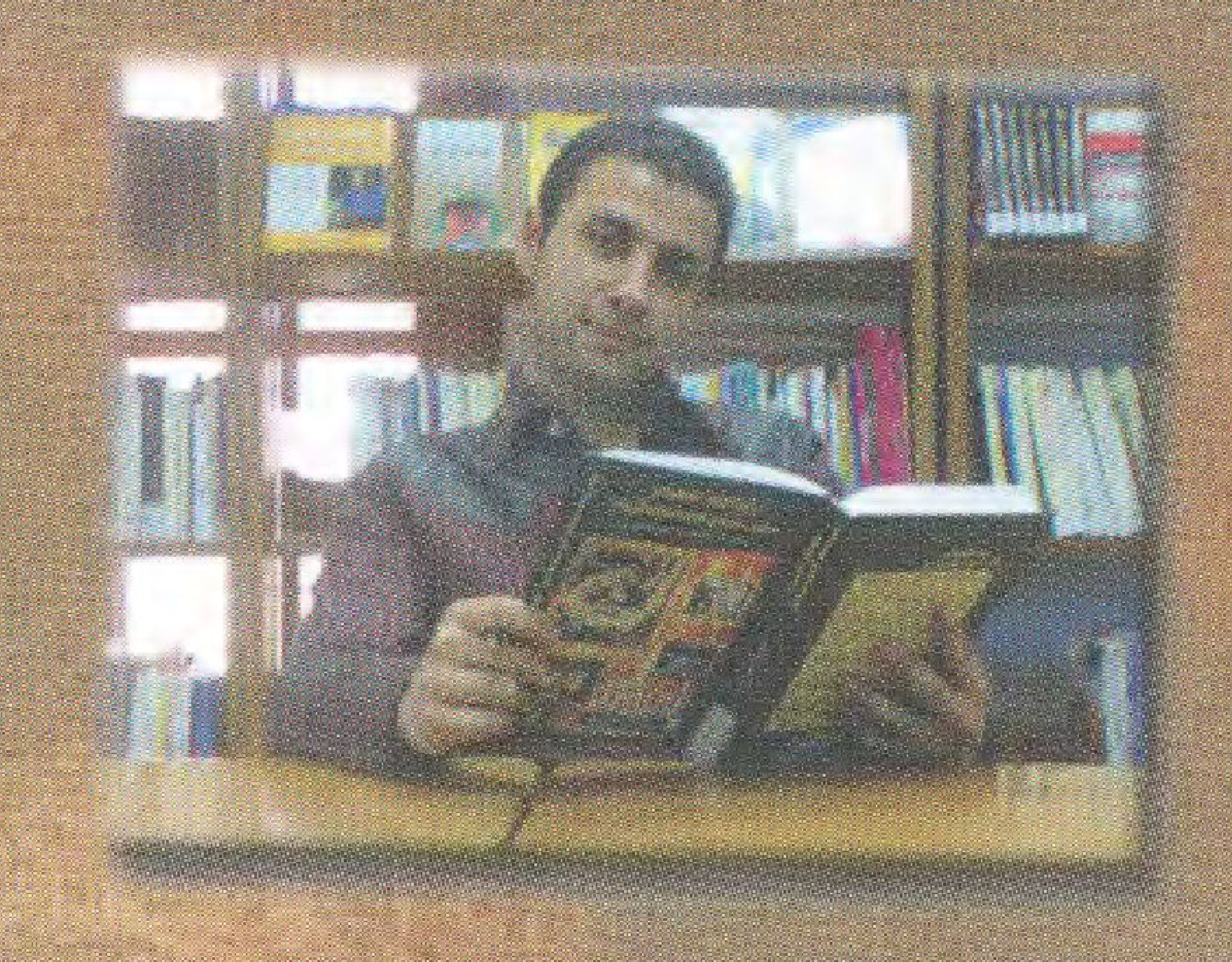
إلى شيخ المسجد وأبونا مينا.. أهدي تحياتي.. بعد أن تعلمت معهما معني التسامح.. والإنسانية.

***

الفهرس

❊ ❊ ❊


فكرة
للنشر والتوزيع



حكاياتنا من بر مصر .. تبحث عن لحظة ضمير
حى .. و حضن أمان وتحن لمصر الجميلة التى
غابت

حكاياتنا تتذكر كوميديا اسماعيل ياسين
والست فيروز وهى تغنى (شايف البحر شو كبير)
و دعوة الشيخ الشعرواى وهو يشرح الفهم ال
لدين غاب من بيننا

حكايات مصرنا المنسية ساخرة صارخة
لكنها مصرية خالصة تبحث داخل الناس ال

بلا زيف يشوه الحقائق أو يتجمل ابتغاء
السلطان

